

عبد الرحمن الأبنودي

مكتبات المكنية العربية
www.tipsclub.net
amly

الأخطاء المقصودة

الكتابات النثرية



الأخطاء المقصودة

(الكتابات النثرية)

عبد الرحمن الأبنودي

الطبعة الثالثة

احياء ...
الى مكاننا الكبير :

"مصر من هكده"

خير الزخمااء المقصودة

. و الى اسرتي لصغيرة :

(زطاك . آية .. نو)

لما ان ان بنوركا

يوليو ٢٠٠٢

مقامتها :

عفريت القيلولة !!

تسوقنا الحياة أمامها . تلهب ظهورنا بسوطها الخفى صيفا وشتاء تدفع بنا للأمام بقوة الفرح تارة وبقوة الحزن تارة ، نهك ، نلهث ، لا نملك إلا أن نتوقف قليلا لالتقاط الأنفاس . لا نتبين إن كان توقُّفنا هذا فى خلاء أو عمل . فى فراغ أو زحام . على رصيف أو فى قلب شارع مكتظ أو فى ميدان سيئ التنظيم يسكنه الخطر ويبرطع فى أرجائه الموت!! نتأوه قليلا بصوت لا يسمعه إلاّنا . نستند إلى جدار . نحاول التذكر فيعصف بنا النسيان لنعود للدوران فى ساقية الزمن الزنانة التى تشكل الأيام والليالى قواديسها البخيلة التى تصب قطيرات ماء عبثية لا ندرى إلى أين تذهب : هل تسقى شجرة؟ هل تسبح فى البراح والرمال والهباء؟؟ لا جواب!! نحن فقط نساق أمام الحياة التى تطلق صيحاتها وتطرقع أسواطها فيدفع بنا الرعب إلى الإنكفاء والقيام والهرولة . حين تتقطع أنفاسنا ، نتوقف مرة أخرى . قد يصطدم بنا - لنوقفنا المفجئى - من يجيء من خلفنا ، بشراً كان أو آلة . لكننا لا نملك إلا التوقف وإلا نقطعت الشرايين وأفلنت قبضتها من حول الجسد .

أقول لنفسي أحيانا : لماذا لا تعلق لافتة على ظهرك ، تتدلى من خلف عنقك مكتوب عليها (إحذر .. وقوف متكرر) ؟.

هذا هو حال الشعر معى . يتوقف بلا مبرر ، ويعود بلا مبرر ، يغيب كثيرا ، وكثيرا ما يسكن معى نفس الحجرة كأنه هارب أو لائذ بها من خطر يتربص به خلف جدار الدار .

حين يأتى يفتح أبواب المتعة والألق والعطاء ، وحين يتوقف أظلم فى انتظاره بصبر أم حصّد الشيبُ شعر رأسها ولم تنس أو تيأس أو تكف عن انتظار ابن محت ملامحه غربةً قاسية !!.

كنت فى البدء أنوء بحمل هذا العجز وأنوح على غياب الشعر إلى أن أهتديت إلى الكتابة النثرية . كنت أظننى خلقت وولدت شاعراً وأن الشعر ملكى دائماً وطوع يمينى . أبوابه لا تغلق ومنافذه لا تسد ولا تقدر الدنيا نفسها على زرع الحواجز بيننا . يأمرنى وأمره فأجيبه ويجيب . كنت أفخر بهذه العلاقة إلى حد النزق والإفخار الأرعن حتى وجدتنى يوماً وقد كهلت ثم شخّنت فسبقنى حصانه ليتركنى فى مؤخرة المعركة أرقب دون تدوين محاولا الاحتفاظ بالأرقام وصور المعارك وآيات البطولات لتتسرب بعد قليل أو كثير وتتسرب وتهرب فلا أستفيد منها ولا يستفيد منها الشعر الذى صار يلاعبنى كعفريت القيلولة !!.

هكذا وجدتنى أتلقت من حولى فأهتدى إلى أبواب النثر السرية التى لم أكن أراها - أو كنت أتجاهل رؤيتها - من قبل !!.

شيئاً فشيئاً إننقم لى النثر . صار يحتوى ما لا يمكن للشعر أن يحتضنه ، فى نفس الوقت الذى حاول - معى - أن يسهم فى سرقة أشياء الشعر : ملابسه ، ملامحه ، أصباغه ، أصواته

حتى الآن لم أعلن مقاطعتى للشعر ، لكنه - إذا لم يعد ويرد لى الإعتبار - فإبنى لن أتورّع عن نسيانه وسأنساق مع النثر إلى مصباته النهائية . لم أكن الشعر فلماذا أتحمل منه هذا العقاب الثأرى وهو يعلم- جيداً - أننى من أكبر عشاقه .. ؟..

عبد الرحمن الأبنودى

القاهرة

أول أكتوبر ٢٠٠٠

القصيدة والقصد !!

كان يأتيني كفيضان النيل ، ما إن أقيم أمامه جسر حتى ينفجر آخر .
يسحقني لحييني ، ويشقني ليمتعي ، ثم ليجعل لي قيمة بين البشر ويميزني
ويدفعني بكل قوة إلى الإيمان بنفسى وبقدراتى ويستدرجنى لاكتشاف مواطن
الجمال فى الحياة.!!

فجأة أصبح ضنينا ، لا يدق بابا ، ولا يهتف باسمى من خارج الدار ، ولا
يرسل من يوقظنى !!

صار كشجرة الخريف ، على قلة أوراقها لا تكف عن الإسراف فى
التخلص من البقية ، تاركة الفروع العارية المهملّة عرضة للرياح والأثرية
والغربة والبرد!!

هل هو السن ..؟ هل هو الشيع..؟ هل إيمان عميق باللاجدوى ؟ هل هو
النظر إلى الخلف واكتشاف طول المسيرة التى أدت بى إلى محطات خاوية
مهجورة ؟

لو كنت خنته لكان خائنى . لكنه يغيب . يغيب كحبيبة قديمة ابتلعها
الغياب ، أطفأ بريق شعرها وزهوه ملابسها وضحكاتها النقية حتى تاهت فى
أطلال الذاكرة ودروب النسيان . وإذا بى ألتقيها فجأة فى أحد المدارات البعيدة

على غير توقع . تمسح بكمها غبار النسيان فتخرج الضحكات جديدة كسبراعم
تتفتح جميعاً فى لحظة واحدة .

يلقى إلى بقصيدة كمن يتصدق !! يذيقنى أسرار طفولتى الشعرية القديمة ،
ويروى ظمأ الشبق وينسحب بابتسامته الغامضة ليركب كل منا طائرته لنتجه
إلى عالمين بعيدين مجهولين تسكنهما المسافات والاستحالة !!..

أحمد الله على أنى لست من هؤلاء الذين يتجاسرون على حياء الشعر
فيغتصبونه أمام المارة فى وضخ النهار بدعوى أنهم يقيمون معه علاقات
مختلفة متقدمة تمزق جبة كهنوته وتنفى العلاقة الزائفة التى ظلت لأزمنة
طويلة تربط الشعر فى أوتاد الشاعر . إنهم محررو القصيدة من أجل جمهور
الشعر الذى عانى طويلاً ربة أغلال نقاقنا اللغوى والدينى والسياسى
والاجتماعى القيم والعصرى ، وادعاءاتنا الكاذبة بعلاقة حميمة مع البشر ،
وجمودنا الذى قتل حيوية القصيدة والحياة معا ، وأن هدفهم الأسمى تحطيم
الأصنام - نحن ورفاقنا الذين رحلوا - بآلات هدم جديدة معقدة مستوردة
خصيصاً لهذه المهمة .

علاقتى بالشعر كعلاقتى بأمى ، تتذكرنى فى موتها البعيد فتأتينى
لأتذكرها !!..

علاقة لا مجال فيها للعبث أو التلاعب أو النصب . هل يتصنع الإنسان لغة
لاستقبال أمه الراحلة ، والشوق والتوق إلى سحر طلعتها وحلاوة لفظها
واستيقاظ الذكريات النائمة ؟..

لا غموض فى علاقات الحب البسيطة العميقة وزاد الذكريات القديمة والحديثة : الزوجة ، الأبناء ، الأب ، الطفولة والأيام الخضراء ، الدوران خلف الساقية ، النزول إلى قاع بئر ، صعود نخلة تتحدى ، سباحة فى نهر ، صيد سمكة من الماء الطامى .

لا غموض فى علاقات الحب المركبة أيضًا : الرفاق ، السجن ، تأمل الزحام البشرى ، التمرد ، الغضب للآخرين ، الرغبة فى ملاسمة الأحلام البعيدة واختراق الحقائق المستحيلة . كتابات لأديب لم يدلك عليه أحد . تقليب حوادث التاريخ . كره الخيانة واحتقار الخونة !!

هل هناك غموض فى الإحساس بكل ذلك ؟

الضمير هو لحظات تذكر عميقة قادمة من تلقاء نفسها تملأ الوحدة وتضئ الغرفة وتحبى الذاكرة ليسطع الشعر .!! حين تتفتح الروح المهمومة كالوردة الساذجة خالصة مخلصه للمعرفة والحياة ، يأتى الشعر بسيطاً كالحياة التى عشنا ، متشابكاً كعريشة التجارب المتداخلة مورقة أو جافة . يبيل عطشك ويمنحك طاقة للمضى ومعنى لعبثية الحياة ، وجدوى لاستمرارك .

ما قصدت إلى كتابته قصداً إلا وخذلى . ما أجبرته إلا و"حَرَنَ" ورفسنى وألقى بى تحت أقدامه ورمح . ما حاولت كتابته وفى ذهنى أحد أو قصد إلا وتوقف القلم بعد عدة أبيات باردة ميتة ماسخة الطعم كتبها شخص آخر غيرى !!

حين يأتى حُرّاً مقررّاً ساعة البدء فهو ملابس العيد الملونة وفرحته البريئة وذلك الإحساس بأنه يومٌ يخالف كل ما سبقه من أيام . يكتشف ذلك فى صوتك

الصغير والكبير ، المتعلم والعالم والأمي . يوم فريد جديد : الشمس والرجوه والتحايا . ليس أى يوم صالحاً لأن يصبح يوم عيد ، وليست كل اللغات تصلح للتواصل في صباحه ، وليست كل اللحظات صالحة لأن تكون لحظات إبداع !!

إنه السحر ، النداهة تتبعها منساقا للخيوط والخطوط والشطوط والأكوان والألوان والرؤى التى تراك قبل أن تراها وتقتحمك قبل أن تذوب فى سحر الأضواء والأهواء والأنواء والتفرق والتوحد فى النفاذ الخيوط .

تصبح الشرنقة فراشة والفراشة شرنقة لتؤمن بدورة الحياة وديمومتها . لسر فكرت قليلا ، لو أفقت إلى وجودك لحظة ، لو رفعت يدك لاختبار نسيج اللحم لأفسدت بيدك اللعبة السحرية قاتلا اللذة مبطلا النشوة ...!!

أعجب لهؤلاء الذين يدخلون إلى لعبتهم المصنوعة بوعى شديد كالتأمر ، وباستيقاظ فاضح تهرب من وجهه العذرية والشفافية خوفاً من إصبع فض البكارة !!

البكارة التى هى ليست كلمة وإنما هى تاريخ من كمون النفس على الأسرار والألغاز والرغبة والرغبة بدوامات متداخلة من القبول والرفض والحرية والقمع والتربص والاستسلام لا يفضها سوى الاغتصاب والنظرة الوقحة . هل تكتب الوقاحة شعراً؟ هل يفض التعقيد تشابكاً ..؟ وهل يسهل الغموض المقصود المفتعل سبل التواصل بين البشر والبشر؟ والبشر والحياة؟ والفرد والجماعة؟

الفارق كبير ومخيف بين "الحكيم" و"المجذوب" ذلك رائق البال صافي الفكر عميق التجربة ثاقب النظر ، وهذا - فى الغالب - أفاق مخبول غائم النظرة

يدعى اختلاط الرؤى والأفوال . لفرط بلاهته يجهد نفسه لتحويل القوم إلى بلهاء فى معقولية لا تتراءى إلا فى رأسه المشوش الذى لا يستمع إلى خطوات البشر أو صيحاتهم ولا إلى لغات الكائنات .

يخُذُ الحكماء ، وتقنى المجاذيب !!.

الشعر هبة الهبات ، مائدة الأحباب ، الفرح المشترك ، سعادة اليتيم تنسيه التحسر على موته ، الريح التي تهب فجأة وتخفى فجأة حاملة معها أسرارها . لو قالت لنا الكتب كيف يُكتب ومتى ، لكتبت فى كل يوم مائة قصيدة . ليس أمتع من لحظات الإبداع للمبدع . متعة المتع ، حين يطل عليك من حلق الباب ويهمس : " مساء الخير أيها الشاعر " ويجلس لتستقبله .

تغيير النشاط !!

نصحنى أصدقائى بالبحث عن مورد رزق ثابت يحمى شيخوختى من العوز ويكفينى شر سؤال اللئيم فى الزمن المقبل حين تكل عين القراءة وترتعش يد الكتابة ويتحجر عقل الخيال أو ينطفئ خيال العقل فتنبور التجارة وتعم الخسارة .

نصحونى بإقامة مشروع صغير أو الدخول شريكا فى مشروع كبير أستثمر فيه الأموال الطائلة التى فى حوزتى ، وفى الواقع فابنى فى حيرة من أمر هذه الأموال الطائلة وكيفية التصرف فيها فهى أكثر من أن أنفقها أنا وزوجتى أو تنفقها من بعدى طفلئنا الصغيرتان . لذا فأنا لا أجد مبرراً لاستثمار الأموال وجلب مزيد من الأرباح عليها لتكبر وتتضخم ، وتتضخم معها مشكلة إنفاقها .

يقترحون على شققاً مفروشة والتى أعلم جيداً ماذا تدر من دخل ، خاصة إذا ما راوغت الضرائب وانتفقت مع السكان على أجر وأبلغت الضرائب عن أجر . أو أقيم داراً للنشر أو مجلة أو .. أو .. ولقد رأيت أصدقائى يقيمون مثل هذه المشروعات ويتساقطون مفلسين واحداً بعد الآخر بعد أن صرفوا "قرشين البنات" و"ذهب الزوجة" ولم يحققوا حلماً أو يحققوا دخلاً ثابتاً .

صحيح أن أموالى أكثر بكثير من أموال هؤلاء وأن مشروعي فاشلاً أو عشرات المشاريع الفاشلة لن تلقى بى فى ساحات المفلسين إلا أن الذى يلدغه الشعب يخاف من الحبل ، وقد رأيت ما حدث لأصدقائى ووعيت الدرس جيداً .

لا أكذبكم القول حين أقول إن البصر ينسحب من عيني كخيوط ضوء النهار لحظة الغروب ، وإننى منذ فترة ألجأ إلى أحد الأصدقاء الخلاء أملئ عليه مقالاتى .

وصحيح أن اليد - بعد عملية القسطرة - نالها بعض التخاذل وفقدت الكثير من كفاءتها . لقد أمرنى الأطباء فى أمريكا ألا أحمل بيدى اليمنى ما قيمته عشرة أرطال ، ولم أتذكر أن النحت بالقلم على الأوراق أثقل بكثير على اليد من أرطالهم العشرة .

أما العقل فرس الخيال الجامح فإن الدواء الرهيب المسمى "الكورتيزون" قد فصل التصورات عن لغتها وترك مسافة بين الصورة والتجسيد باللغة . مسافة للتهته الفكرية والحنجرة الإجبارية التى تنوء خلالها كل طيور الذاكرة وتخبو شعلة الإبداع المقدسة .

لن يغيب عن إدراك الحصيف أن أدائى قد تأثر بأزمى المرضية القاسية وأنها - بالإملاء - فقدت الخصوصية السرية التى تتم فى الخفاء الشديد بين المبدع وأوراقه!!

لكننى رغم كل ذلك غير قادر على تغيير نشاطى ، بل غير راغب ، وأفضل أن أموت وأولادى جوعاً من أن أجلس على باب المحل أذب الذباب بمنشة أنيقة فى انتظار أن يعمل من بداخل المحل ليصب المال فى جيوب شيخوختى وأنا أستمتع بدفع شمس الصباح الشتائى . يالها من فكرة تدخل السكنية إلى القلب لولا أن قلبى عاش رافضاً للسكنية نافرًا من الزمان المجانى !!

لقد أحت على - كما على الكثيرين - فكرة تأمين مستقبل البننتين بشقيقتين تتزوجان فيهما حين تكبران ، ووجدتى وقد تملكنتى الفكرة والتدبير أكاد أكف عن التفكير فى قصيدتى وأكاد أفقد صلتى بنفسى فنفضت الفكرة ملقياً بمستقبل البننتين إلى أدراج الرياح .

ماذا خلف لنا أهلونا حتى نخلف لهما ؟

هكذا عدت مرة أخرى إلى طموحاتى اليومية التى لا أستطيع تجاوزها :
كتابة بعض الكلمات على الأوراق ، ومهاتفة المتبقى من الأصدقاء ، وإطلاق
بعض الضحكات المختلطة ، والنوم الهادئ في انتظار الصباح !!

أيها الإخوة الناصحون : احتفظوا بنصائحكم الغالية لكم ، إننى أعيش يوماً
ببوم، أصبح وأسرتى الصغيرة فى قارب صغير بسيط ، لا يفزعنى الغد . أحس
أحياناً ببعض الذنب لأننى أترك طفلتين صغيرتين بلا حماية مادية ، لكن ذلك
لا يعطل المسيرة ولا يؤثر على العطاء .

(تغيير النشاط) قد يصلح هذا التعبير فى التعامل مع مصلحة الضرائب ،
لكنه لا يصلح لأى منا - أنا وأبناء جيلى - فقد تعلمنا اللعب والنقش على
الورق ، واكتسبنا وجودنا وأسماءنا من الشخبطة على الورق ، وأغلب الظن
أننا سنموت فقراء كما بدأنا . حين تأتى اللحظة سوف ننكفى على الورق !!

أمة بلا دولة !!

[من شاف بلاوى الناس ، تهون عليه بلاويه !!]

الاتحاد السوفيتى العظيم نصير الثوار وشفيع الأحرار ، تفكك وتشظى
واضمحل وذبل وذاب وصار عليل البدن . صورة متشابهة شكلا ومضمونا
لجسد قائده المريض "يلتسين" !!

معجزة القرن الأمريكى ، حققتها الولايات المتحدة - جدا فى الشر -
بمساعدة الحلفاء والعملاء !!

الحرب العالمية الثالثة كسبتها أمريكا دون أن تغادر مطرحها ، ودون أن
تفقد فى الحرب جنديا واحدا !!

لو استيقظ "لينين" الآن . لو غادر جسده المحنط بدقة والذى تتلاقفه الآن
أيدى الخونة العابثين ممن أسقطوا عنه مهابة يستحقها ، وطلوا وجهه بالمهانة
التى لا تليق بعظمة رجل القرن العشرين ونضاله ومجده ، لو استيقظ "فلاديمير
إيلتش لينين" معلم الثورة الأول فى العصر الحديث ، القائد الذى لم يخطئ أبدا
لاكتشف أنه أخطأ الخطأ العظيم الذى يرتفع إلى جرم الخطيئة !!

صنع وصاغ كل شىء . نظر ونظم ورتب كل جزئية ليقيم دولة
المضطهدين تاريخيا - عمالا وفلاحين - يحققون بأيديهم ديكتاتوريتهم التى
تسعى إلى تحطيم جهاز الدولة ليتولى حزبهم - فى المستقبل - إذابة فكرة
الدولة أصلا !!

أمة بلا دولة . يا سلام . ما أجمله من حلم !!

سعى أقرن بأكمله خلف المبشر وانقسم العالم بأكمله إلى معسكرين . بفكر شامل وحدقات مبصرة تأكد من أنه لم ينس صغيرة ولا كبيرة . لكنه فى الحقيقة كان قد نسى شيئا مهما إسمه "الإنسان" .

الإنسان بطموحه الفردى وأطماعه وأنانيته ورغبته فى التفوق على الآخرين وخداعهم ، وامتلاك ما لا يمتلكه غيره ، والذى يلجأ من أجل تحقيق ذلك للعث والتدليس والتبرير والتنظير والتحريف والتجريف والمناورة والمداورة ليكتنز أشياءه الدنيوية الحقيرة ، وشيئا فشيئا تتوحد المطامح والمطامع والانتهازية لتصير خلقا عاما يكون أيديولوجيته الخاصة التى يختلط فيها الحق بالباطل لتصبح السلوك شبه العلنى ثم السلوك العلنى للحزب "المسيطر" الذى لم يعد له أية صلة بذلك الحزب النقى الذى أقامه الرجل ليسود الإحباط الأمة من جديد ولتسقط الكراسات الثورية بكل أفكارها من عقيدة الجماهير التى لا يخفى عليها ما يحدث ، فتفقد دوافعها للانتماء وشدة الحزام على البطن والعمل والإجادة والرغبة فى التقدم أو الوقوف مع الشعوب الراغبة فى الاستقلال أو الثورة بعد أن استبدل الظلم القديم وجها بوجه وكان "لينين" لم يكن ، وكان ثورته العظيمة التى هزت الكون وزلزلت أركانه لم تحدث !! لذا كان طبيعيا - أو هكذا بدا - أن ينتزع البشر تماثيل المبشر الذى أسلمهم إلى الحلم المكلف الذى التهم أعمارهم ليحصدوا الشوك والقتاد .

حملوا لينين مسئولية ما فعله - من خلفوه - من حكام أفرزهم الخلق الحديث

وقيم ما بعد الفساد !!

قام مزاد بشع العننية لبيع جسد لينين المحنط الذى كانت الناس تقف فى
البرد طوابير بالكيلومترات لتلقى نظرة خاطفة عليه ، ولا يجد المزاد من يدفع
روبلا ثمنا لجثمان قديس القرن !!

المشكلة أن الأعمار محدودة ، ولا يستطيع تحقيق الحلم إلا من حلم به .
الهم لا يحمله إلا صاحبه ، إن أقرب الناس إلينا : الصحاب والرفاق الذين تبدو
أحلامهم شبيهة بأحلامنا أو مطابقة لها ، إذا ما احتدمت التجربة وتغير الظرف
وغاب كل منا عن الآخر ، تراه يسفر عن وجه آخر وفكر آخر وسلوك آخر ،
وقد ينقلب على كل ما عاش شريكه السابق يزرحه ويرسخه تحت لافتات
"تعديل المسار" و"نقد التجربة" و"تجاوز السلبيات القديمة" !!

مات جمال عبد الناصر مخلفا تركته الناصرية فى يدى رفيق رحلته
وصديقه "السادات" ليستكمل المسيرة ، فإذا بها بداية من الصفر لعصر آخر له
توجهات أخرى وقيم أخرى !!

جاء "جوزيف ستالين" بعد رفيقه ومعلمه "لينين" ليسفر عن وجه آخر
لديكتاتورية البلوريتاريا لتشن صناعات الثورة بالرعب والخوف وتحكم الأقفال
حول الفم والقلب والضمير . وتوالى سلسلة الحكام فى الاتحاد السوفيتى حتى
لم يعد ثمة خيال لمؤمن بتحقيق جنة الفقراء على الأرض !!

راهن الزعيم على نقاء الإنسان فخانته الطبيعية الإنسانية التى يعوزها جيش
كامل لحراستها ومنعها من التسلل والتجمع حتى أصبحت كتلة طبقية يصعب
تهشيمها ، تملك السلاح والسجون وتأمرت حتى جعلت من إحدى القوتين
العظميين فى العالم هشما تذروه الرياح ، وأشلاء لا تجوز عليها غير
الرحمة !!

هل يجب أن يعيش الزعيم ألف عام حتى يحقق أفكاره ، ويحول نظرياته
إلى واقع؟ ليراقب كل شاردة وواردة حتى يتم له إسعاد البشر بنفسه كما حلم
لهم بنفسه؟

من الذى سيخلف كاسترو والفدافى ؟ وهل سيسير الخلف على نفس دروب
السلف؟ أين لينين الذى ذاب فى حب فقراء الأرض من ذلك السكير المتشبه
بكرسى الحكم يضحك فى افتعال واستهبال فى قلب أوحال الأحوال وقد بلغ
بوطنه حواف الهاوية يتسول الإنقاذ من عدو العالم المزمع القديم بعد أن تشوّد
الشعب العظيم وبيعت نساؤه فى سوق النخاسة قربانا على أعتاب صندوق النقد
الدولى الذى يرش الماء أمام الموكب مهينا المنحدر للانزلاق الأخير ؟

أنظر إلى كل ذلك الخبال المجانى ، بوعى مجانى ، وأقول لنفسى كى تهدأ
فى آخر الليل : "من شاف بلاوى الناس ، تهون عليه بلاويه!!"

قطار النسيان !!

فى سجن "مزرعة طرة" مات "محمود نور الدين" قائد تنظيم ثورة مصر
الذى قتل نفرا من الإسرائيليين فى قلب القاهرة فحكمت عليه محاكنا بالسجن
المؤبد !!

ذكرنى موته بكل شهدائنا دفعة واحدة . حقل من الحيوانات والأصوات
والأسماء قبضت عليهم يد الذاكرة فى حزمة نحيلة الأعواد تحمل آلاف مؤلفة
من الوجوه المصرية السمراء النubile الحزينة . ماتوا أرقاما ، جماعات ،
مساحات من البشر لا سبيل إلى قيامها . كتلا يكفنها الكاكي فى فضاءات بلهاء
فى تلك الصحراء الشاسعة البعيدة .. دة التى إسمها "سيناء" . لم نرهم
يموتون . لم نسمع وصاياهم أو أقوالهم أو شهاداتهم على زمنهم وحكوماتهم
وقضيتهم . صدقوا الحكام والتزموا بأوامر القادة واندفعوا يحملهم الشوق
لتحرير الأمة وتحويل الكلمات إلى واقع ، وبناء الصرح الكبير بأجسادهم .

ماتوا جميعا بالطريقة التى ترضى إسرائيل !!

كأنهم خرجوا من ديارهم وارتحلوا دفعة بعد دفعة لينام عدوهم قرير
العين .

لم نكرمهم فى الحياة ولم نحاول إيقاظهم من الموت . صاروا قطعانا من
النسيان . قطعاً بالية من ثوب الزمن ، ونقا من مهملات الذاكرة ألقينا بها على

كومة الماضي الذى عبرناه . ذابوا كشمس غربت . كسنبلة فرطت حبها على
أرض صخرية فالتقطته الطيور العابرة !!.

الرقدة الارتجالية . وجوه فزعة مغفرة . عيون تحشوها الرمال . نتف
الذاكرات التى مزقتها رصاص العدو بعيدا عن الأهل والدور . الدماء التى
تجمدت وتجلخت وتجلدت على الصدور وزوايا الأفواه . إرتفعت النصب
التذكارية فى الضوء حين كانوا - هم - ينزلون إلى جيب الذاكرة القومى
يسكنون ظلماته إلى الأبد.

حين دقت طبول النصر وارتفع صوت الأفراح وأسعلت القناديل لم ندفع
ثمن الزيت . لم نتذكر دماء من غمسنا فى دمائهم فتائل العرس المضىء .
أطلقنا عليهم تلك التسمية الانتهازية مكشوفة التضاريس (الشهداء) ومضينا
لأحوالنا . لم نلتفت إلى أبنائهم أو أزواجهم أو آبائهم . لم نرد الصنيع بصنيع :
بيت صغير أو مزرعة فوق "شبر الدماء" التى امتصتها الرمال من الأتداء
والأمعاء والمحاشم والقلوب التى أمنت بكلمة أكثر إيهاما إسمها (الوطن) لم
نحمل أبناءهم فوق أكتافنا فى زحمة الكرنفالات . غنينا الأحياء ونسينا
الموتى . لم نعلم أطفالهم مجانا فى "مدارسنا" - عامة وخاصة - لم نستبدل بأية
صورة أبا بأب . كانوا - حبا فى مصر وإيماننا - سيقبلون بأب موجود ،
عوضا عن أب مفقود !!

هكذا ابتلعت مصر اليعموم بردا وسلاما وانصرفت إلى توزيع تركة الدماء
وانتقلت فكرة الوطن الواحد ليصبح لكل منا وطنه!! انكفأ كل بيت على جراحه
وتتصل ابن الشهيد من اللقب بعد أن لم يعد مصدر فخر . كان هذا - أيضا -
مبعث سعادة غامرة لإسرائيل . لقد نجحت فى قتلنا ، ثم نجحت فى أن تنسينا
قتلنا !!

متنا - تماما - على الطريقة التى يحبها لنا عدونا . وارىنا العورات على الطريقة التى يحبها لنا عدونا . دارينا العورات. ثم نسينا مع تتابع الزمن العجيب والأحداث المدهشة أنها عورات فأفلتتا الأيدى التى تستر ، لنستعملنا فى البيع والشراء والكتابة المتواطئة !!

لم أعرف "محمود نور الدين" . لم ألقه يوما . فقط عرفت حكايته من الجريدة "الرسمية" . فيها رأيت صورته وصور رفاقه وعرفت أنه زعيم تنظيم "ثورة مصر" . عومل كمجرم ، ثم تتبعت توابع الخبر حتى الحكم عليه بالمؤبد الذى قضى منه أحد عشر عاما .

لو أن إسرائيليا قتلنا جميعا - الأمة العربية كلها - لما حكم عليه بمثل هذا الحكم، ولغادر سجنه بعد سنوات معدودات لأسباب "إنسانية" أو صحية أو تليكيكية . أما محمود نور الدين فقد كان مريضا فعلا . كان يموت منذ سنوات. رآه البعض وكتبوا عن ذلك باستفاضة . قرأنا نحن ولم تقرأ الدولة التى طالبوها بالإفراج عن الرجل ليموت فى بيته وبين أهله .

لو فعلت لنالت تقديرنا جميعا لشهامتها أولا ، ولدلالة الفعل ثانيا . هكذا مات الرجل بالطريقة التى تشفى غليل إسرائيل وترضيها !!

تأكد نور الدين من أن دولته لن تدرك - أو تتجاهل - الشعرة الرفيعة جدا بين الكفاح والجريمة . لذا قرر أن يسهل عليها - وعلى العدو - المهمة . ترك الجسد يذوى . امتنع عن تناول الدواء والطعام . رقد فى انتظار الموت يستحبه على الإسراع رأيا يعلنه على الملأ ، رأيا فينا - حكومة وشعبا وأمة - ثم مات سالكا درب الشهداء ، لا شك !!..

لست هنا فى مجال تقييم ما صنع الرجل . هل أخطأ أو أصاب؟ لكنى موقن من أنه وطنى خانه التوقيت . خانته رؤيته لطبيعة العصر وتحولاته ، فقد

بعض في غير زمانه ، عاريا بلا غطاء ، لكنه حقق ذاته وفكره كما آمن وكما
عنف .

إنهم - هناك - يقتلون الرؤساء إذا رأوا منهم ميلا طفيفا عن العداء المطلق
الصريح لنا ، ونقتل هنا من آمن بأن السلام المستحيل مستحيل !! .
معذرة أيها الرجل ..

نسيتك ونحن نركب قطارا يسرع بنا إلى المجهول . أنت - أيضا - ركبت
قطارك المجهول ، ولم يرجع قطارك إلى محطات ذاكرتنا إلا بجثمانك !!

الحزام التاريخى !!

أريد أن أستدين من بنوك الدولة - حبيبتي - مبلغا صغيرا من المال . فقط عدة ملايين بدون ضمان مثل الكثيرين . ذلك لأننى قررت أن أضرب المبلغ فى جيبى وأعادر هذا البلد مثل من غادروا ، ولابد أن تتحقق هذه المغادرة بأقل مغامرة !!

لى فى هذا المال الذى يسرقه اللصوص المحترمون مال . حق أمى وأبى وأعمامى وأخوالى الذين قضوا عبر السنين الطويلة . حقوق أهلى وجيرانى وناس قرىتي الطبيبين وناس القرى المجاورة . فى الواقع : مال كل الفقراء ومتوسطى الحال من المصريين أهل الأجيال الماضية وأبنائهم الذين كبروا الآن وصاروا رجالا رقيقى الحال !

لقد أمرنا الحكام أن نربط الأحزمة يوما ما . لم يكن لدينا منها الكثير فأعطونا - فى كرم زائد - حزما من الأحزمة التى لا تتقطع ولا تترهل والتى تتحمل العمل لسنين طويلة !!

ثقة فى صدق نواياهم ربطنا البطون . اعتمدنا على قليل الطعام وبسيط التعليم والخطوط الخارجية للصحة وبقية الخدمات والاحتياجات والكثير من الأحلام والثقة فى الغد!!

بدأنا نرى المصانع تقوم على أرض الوطن بعرض الدلتا وطول الوادى . دخانها يتصاعد فى السماء ليكتب إسم مصر على فضاء الدنيا . مصر التى تتحول من دولة زراعية إلى صناعية . رأينا الطبقة العاملة تتخلق من عجينة

فلاحين ، وفرشت الخطب الثورية سقف الوطن فأمنّا بأننا بالغون شطا يدعو
تنقّة والانتظار الآمن ، ويصبرنا على حز الحزام المربوط بقسوة !!

لم نلق بالا إلى بعض المنغصات التي كانت تعكّن صفاء الوعي ، مثل
نوعية البشر الذين شكلوا مجالس إدارات المصانع تلك والإدارات ورئاستها ،
والذين طلوا وجه الحزب - كل حزب - بوجوههم المريبة . الحزب الذى
سوف يحمى كل ذلك . هؤلاء الغرباء عن أصحاب الحق . المترسبون فى
أكواب الطبقات التي اعتقدنا أنها تبخرت وصارت ذكرى باهتة ، وهؤلاء
"العمال" الذين كانوا فلاحين ثم تمت "برجزتهم" وحققوا بمصل الانتهازية الخالد
فصاروا أفنديات أضرى من أى أفنديات : مزيج من انتهازيين ومخبرين وخدم
للدولة خانوا فى فراشها طبقتهم بشقيها - عمالا وفلاحين - وعلت أصواتهم
الشائنة بشعارات على قدر اقترابها من وعينا وقلوبنا باعد بيننا وبينها كذب
الصوت الذى فتح بيننا وبين القيادات والسياسات كل تلك المسافات من الغربة
والابتعاد ولم نعد نفرق بينهم وبين سادتهم . لم يعد زرعهم فى تلك المواقع
يحقّق الرقابة والمراقبة لممتلكات فقرائنا بقدر ما صار مصدرا للنفع الخاص
وتسهيل الأمور للجانبين .

تواطأ المستغل والمستغل - وشكلوها كما تحبون - بعد أن أجريت لقيادات
الطبقة المناضلة المنبثقة من زحام الحركة الجديدة عملية إحلال للقلب والضمير
والفكر فشاركوا - عن رضى واقتناع - السارقين الصمت على سرقاتهم
ليحتفظوا بالمكان والمكانة ليتركوا لهم عن قصد بعض فتات المنافع ومسالك
الإستزاق . فلما مات ناسج الحلم الكبير وانكسرت رايته وفتحت حول ذكواه
أبواب الاستباحة منادية بنسيان الشعارات القديمة والمبادئ الزائفة التي لم تجر
على البلاد غير الفاقة والتخلف ، ذهلنا غير مستوعبين للصدمة العبقريّة .
كانت عيوننا قد أنهكت ولم تعد قادرة على إعادة النظر فى أمور الملكية العامة
التي أصبحت خرائب يسكنها اليوم والتي وجب إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أطلالها
الأثرية !!

ساعة أن هتف المنادى مطالبا بفك الأحزمة جرى النهيبة إلى النهيبة دون قيد وبرشاقة ولياقة مذهلة . أما المتحزموون بحزام التحمل ، الملترمون بأحلام مستقبل الأمة ، الذين أخذت بطونهم على الربطة التاريخية والسدت تركت الأحزمة صورها مطبوعة على البطون الخاوية فإنهم لم يستطيعوا الهرولة مع المهرولين . كانوا يحاولون بصعوبة استرداد توازنهم وتعلم المشى فى دروب الغد المجهول المقبل بدون الأحزمة التى صارت جزءا عضويا من أعضاء الجسم ملنفا حوله ومثليفا فيه وانتظروا حتى تنتظم خطواتهم وتستقيم أعودهم ، وحين استرداد بعض اللياقة الهامشية كان النهايون قد نهبوا والنصابون قد نصبوا ليستيقظوا على جرس الدلال يعلن عن فتح باب مزاد بيع المصانع والمنشآت . بيع البطون المربوطة ، وأزمنة الصبر والأحلام الجادة المحزنة !! إنهم يبيعون الآن كل شيء - ليس مهما لمن - يبيعون أملاكنا وجوعنا كأنسها أملاكهم وكأنه جوعهم . يبيعون معاناة الأهل : ملايين الفقراء والمطحونين الذين يعرفون أن أندادهم فى الأوطان الأخرى صاروا أبناء دول متقدمة فى نفس زمن الخدعة التى جاعتنا على هيئة حلم . هذا الحلم الذى يباع "خردة" بتراب فلوس تجيد الهرب والاختفاء دون النظر أو وضع أصحاب الشأن فى الاعتبار !

كانها رسالة السابقين إلى اللاحقين : "سوف نعلمهم كيف يحلمون ، وعليكم إيقاظهم!!" استيقظنا أخيرا وبعد فوات الأوان وضياح كل شيء ، فاكتشفنا جهلنا الطريق إلى البنوك وتلفيق الضمانات والاهتداء إلى الخبراء مساعدي اللصوص علماء المال والضللال ليسهلوا لنا سبل سرقة بعض هذا المال الذى مات صاحبه ، كى نضعه فى جيوبنا ونغادر هذا البلد - قليل الذمة - مثل غيرنا تماما . كهؤلاء الذين علمونا أن النهب والمغادرة أبسط صور المغامرة !!

الجبر والاختيار !!

هى التركة حين لا تجد حراسها ، تتسرب إلى جيوب اللصوص . يقولون إنها آلت إلى الدولة والحقيقة أنها تعرف طريقها جيدا إلى جيوب الخونة سارقي الأقوات مدعى الشرف والكراسة ، محترفي السياسة لتضيق إلى الأبد فى احتفال يليق بغفلتنا وإهمالنا حقوقنا وإغضائنا الطرف عما يفعله الجاهلون - الذين يعتقدون أنهم أذكاء - بنا وبأبنائنا وبميراث السابقين : العرق والدم والمعاناة والتفلى على الجمر والنوم على أشواك الفاقة والحرمان !!

ها هى الشمس تغرب وراء الأفق البعيد غارقة فى دماء تشبه الحزن أو فى حزن بطعم ورائحة الدماء ، بينما تشرق شمس فى كافة أنحاء الأرض متوهجة مبشرة ترتفع نحوها العيون مستبشرة !!

تنقسم الكرة إلى قسمين : قسم مضىء وقسم مظلم ، والأمر اختياري . ولأننا جبلنا على الجبر فلا خبرة لنا بالاختيار !!

الجبر مجاني ، سهل ، على بعد مدة ذراع . تنام تحته قرير العين مطمئنا . يتولى عنك ظالموك إدارتك . يفقدونك الإحساس بالزمن ، بالعمق ، بالظلم ، بالارتفاع والانحطاط فلا تعرف لك رأسا من رجل !!

أما الاختيار فهو كارثة الكوارث ، جالب المصائب والدمار والعار . إنه السجن المفتوح ، والقيء المغل ، والمستقبل المقصوص المظلم ، إنه الثمن الذى لا يقدر على دفعه سوى الشهداء أو الأغبياء !!

أن تقاوم ما تعرف أنه سوف يكون وسوف يتحقق رغما عن أنف أنفك ، أن تقول لا فى عالم النعم ، حيث "اللا" كأنها قادمة من حفرة قديمة ينظر إليها الآخرون بدهشة واستعراب . آتية غير صالحة لأكل أو شرب . ليس لها من ميزات إلا مظهرها الخارجى والألوان الحائلة وعبورها الأزمنة دون إرادة منها مستكنة فى مقبرة خالدة الصمت والظلمة ، وليس لها إرادة فى بقائها !!

نعم ، يقسمون التركة أمام أصحابها ، يفتعلون الحكمة والمعرفة وفهم العالم المتقدم ويستوردون أو يصنعون قرارات التقسيم : هذا له النصف وذاك الربع ولهذا ثمن الثمن ، والوارثون الحقيقيون تختلط إحباطاتهم بقسوة البلاء وعسف الوعى المجهض !!

يجمع اللصوص المحدثون . يبعثون ذكرى ووجوه وأسماء اللصوص القدامى . بل ويدعون رموزهم إلى حفل التقسيم . يسفرون عن الوجوه الشمعية والعيون الوقحة والسر الذى يكاد أن يكون العن !!

يا الله ، لكم نهان يا وطننا . نغرق بك دون تفريط منا ولكنها الموجة العاتية الآتية بها ريح مقصودة الأهداف . ريح خارجة من عب الأعداء ، ريح تبعثر الأكوام وتعيد ترتيب الأنصبة ، لكى يجوع ويفقر ويموت الشرعيون أصحاب الحق ، وتعلو أكوام البلطجية ماسحى أحذية الأعداء ، بينما الفريسة - التركة - تضع ملامحها وتباد أوراقها الرسمية وأشجار المواليد وتعاقب الأسر وسلسلة الموتى الذين خلفوها جيلا بعد جيل لنسرق جيلا بعد جيل !!

الأحذية تدوس ، وحز السكين البارد يرسم على جلد الرقبة يرسم الفارق الرهيب بين الجبر والاختيار ، والقبول والرفض !!

كانهم لم ينقلبوا بعضهم على بعض . كأن أحدهم لم ينترع أحدهم من كرسيه المكين ، المنتصر والمهزوم يجلسان فى قوة وشرعية فوق رقابنا نحن ورثة القدماء وشهداء البحث عن الحق !!

يُظهِرون بنا .. وتمتعهم الفرجة . يطلون علينا من حيث لا تطولهم نظرتنا
لشيكة التي فقدت تفاؤلها ففقدت قدرتها على النظر والانتظار !!

نقسم التركة "بالحق والمستحق" حسباً لموازين القوة والضعف ، القرب
والبعد . ينظر الورثة الشرعيون من خلف تلال الألم والهزيمة وضياح الهمة .
ينظرون في تحسر مرعب ويفكرون - للمرة الأخيرة - في الخروج من
المأزق الذي لا مخرج منه !!

وفي حفل التقسيم لا تقترب الكاميرا من وجه صاحب حق من فقراء القوم .
لا تتجه الإضاءة نحو الملامح الضامرة والثياب المرقعة والحذاء الذي لا يصلح
للسير في طرقات الغد . الغد الذي يطيرون إليه بالطائرات والسيارات وبكل
الوسائل الحديثة ، وإنما تقترب الكاميرا لتركز على نقاء سريرة اللصوص ،
وهوء ملامح القتلة ، وعلى القادمين المستوردين من بلاد متخصصة تجيد فن
التقسيم ، فن الإفكار والتمويه والتعتيم .

يمارسون مهمتهم في كفاءة يستحقونها ، وننظر إليهم في انكسار ورضا
وتسليم نستحقه أيضاً !!

تتسرب التركة إلى وراثتها الجدد دون أن تتأمل أو تصاب بما نصاب به
من تأنيب الضمير الكاذب .

يا الله ، لكم نهان وتهان يا وطننا !!

القرن الجديد !!

كأنما انفلت عش للدبابير من حولنا تزن دبابيره وتطنن وتطير وتُغير
لتجبرنا على التوقف وعدم الإتيان بحركة وإلا نشبت دبابيسها المؤذية فى
أجسادنا لتخلف الآلام والأورام !!

إنه ظنين انتهاء القرن وبدء القرن . العجيب أنه لا القرن القديم انتهى ولا
القرن الجديد بدأ . لكن العالم جميعه اتفق على الكذبة ونحن كالعادة جزء من
الكذبة العالمية !!

امتألت محطات البث المسموعة والمرئية وشحنت ببرامج وحوارات
وأقوال عن القرن الذى انقضى ومضى والقرن الجديد السعيد الذى ندخله
مسلحين بالعلم - الذى لا نملكه - والأمل - الذى انطفأ منذ سنين وسنين -
والرغبة فى الصعود والعلو - رغم أقدامنا المكبلّة والمشدودة إلى أنقال التخلف
الخالد - !!

وَشْ ما بعده وش ، وضجيج رهيب نعرف أنه سينطفئ فى اليوم الثانى من
شهر يناير لتعود "ريما" لعاداتها القديمة ، إذ أننا ندخل القرن الذى يوهموننا بأن
له بوابة الداخل إليها مولود كما نحن . لم نغير شيئا من عاداتنا أو أفكارنا أو
إيقاع خطواتنا !!

تحاول البرامج التى تتكالب على أذاننا حتى لتكاد تصمها وعلى عيوننا حتى
لتكاد تقفلعها إفهامنا أننا بالدخول من البوابة لندلف إلى القرن الجديد سوف نولد
من جديد . سوف نلقى بتخلفنا وانحطاطنا وفسادنا وكذبنا ونفاقنا ولا مبالاةنا

خرج بوابة القرن لندخل عرايا مطهرين كأننا فى طريقنا للوقوف أمام
نرب !!

يا لنا من كذابين محترفين !!

هل فعلا نستطيع - حكاماً ومحكومين - التخلّى عن هذه الطبيعة المدربة
على الاختلاق الذى يوارى الاختلاف ، والابتسامات التى تستر البشاعة
والدمامة ؟ هل نستطيع التخلّى عن ذواتنا المتآمرة على شعبنا لسلبه حقوقه
فى الحياة الكريمة ، والتخلّى عن جشعنا العبرى ونهمنا الذى لا يسكته شيع
والا ارتواء ولا سلب ولا نهب؟

هل - فعلا - بمجرد المرور من تحت تلك البوابة الوهمية التى تدق لها
الطبول ويكترى لها النجارون والدهانون والكهربائية والمطباتية والرقاصون
والرقاصات ، سوف نولد من جديد وسوف نواجه أقدارنا وسوف نُسقط عن
وجوهنا أفتنتها الزائفة ، ونرد ما سرقناه إلى خزائن هذا الشعب المفلس
ونراجع مواقفنا من أعدائنا ونلمم أخطابنا المتبقية المتناثرة لنشعل ضوءا فى
ظلمة القرن الماضى ينعكس على ملامح أعدائنا الذين كدنا ننساهم لنراهم على
صورتهم الحقيقية من جديد ؟!

فى نهايات القرن الماضى اختلطت الملامح بملامح الأعداء والأقوال
والأصوات بأقوال وأصوات الأعداء حتى استحال التمييز بين الفريقين اللذين
صارا - تقريبا - فريقا واحدا . فهل مجرد العبور من البوابة الوهمية للقرن
القادم سوف يرد لنا ملامحنا ويحدد الفروق بيننا وبين المتربصين بنا ، ويجلو
عن القلب دخان الكذب والمرااة والنفاق والعمالة ليتعلم من جديد كيف يحب
أحباءه ويكره أعداءه بعد أن فقدت القلوب وظيفتها الأساسية فى الحب والكره
وصدئت من قلة الاستعمال؟

غير صحيح !! لقد تمكن منا الكذب حتى ليستحيل علينا نزعهِ إلا بطينة
القلب وتمزيق الأغشية وتمزيق الأوردة وتسييل الدماء !!

غير صحيح أن الفوقى مستعد لمجالسة التحتى فى إحساس رهيب
بالمسئولية ليقترب الرأسان للتجاوز فى هموم الوطن والتشاور فى طرق
الخلاص !!

غير صحيح أن اللصوص سيسلمون نهائهم على بوابة القرن ليدخلوها
بسلام آمنين ، وإنما هذه الطبول التى تفرع ، وهذه الأغنيات التى تسمع إنما
هى حفل التكريس النهائى للفساد الذى ندخل به القرن الجديد باحثين - بأنفسنا
- عن نهاية تاريخنا كأمة ، ونهاية دورنا كشعوب تملك الإرادة الذاتية القوية
والقدرة على المسير وصنع المصير !!

الكاذبون المنافقون السادرون فى الغى يعتقدون أن أحدا يصدقهم . أن أحدا
لا يرى ما يخبئون لنا فى قلوبهم السوداء العفنة من نوايا . أن أحدا لا يراهم
يبيعون الأوطان ويستبدلون أعوام السيادة بأعوام الرمادة . يعتقدون - هؤلاء
الأغبياء - أننا أغبياء . وأن نهب فلوس الفقراء وإنفاقها على البهرجة
والمهرجة يمكن له أن يخطف أنظارنا وأن يحول أفكارنا فنرى الذئب يمامة ،
والضبع حمامة ، وأن ننتظر من وراء الغيلان أمنا وسلامة !!

يا بوابة القرن القادم لا تخذعنا زهوة ألوانك . نحن شعوب الأرض
المقهورة الذين نبول على جدرانك !!

الزمن يمضى ، لا يفهمه إلا النابهون أصحاب القضية . من أجل هذا يتقدم
أعداؤنا كل يوم بلا ضجيج ، ونتقهقر نحن ونفرط ونبيع ونهدى حتى ليكاد
الوطن أن يمر من تحت بوابة القرن الجديد هيكلا عظيما وقد نبت فى رأسه
قرن جديد !!

أصحاب القرنين

يدور دولا ب العمل بدأب حقيقى . يمدى الاستعداد فى القاهرة - القاهرة
فقط - على قدم وساق فى شوق لاستقبال القرن الجديد !!

تتفق أذهان المسئولين عن أفكار "ذهبية" لوداع قرن واستقبال قرن . الزمن
عملهم والقرون ميراثهم وأوقاتهم الملك ، لذا فهم الذين يفكرون ويدبرون
ويخططون وينفذون . لا معنى للأزمة بدونهم . إنه عالمهم الذى يحيون تحت
سقفه بلا شريك . لا يضايقهم أحد ولا ينقص البهجة أحد . هم المؤلفون
والممثلون والمخرجون والمنتجون والصابغون والقابضون وهم - فى النهاية -
المتفردون . لا يحسون بأحد . لا يخشون مزاحمة أحد . لذلك فهم لا
يحاولون وضع خطة لاستقبال القرن القادم . خطة واسعة الصدر بادية
الرحمة ، ممتدة الأجنحة ، تلقى بظلالها على كل خريطة الوطن البشرية ،
وتنتظم فى مسيرتها جحافل الشباب وأمواج الأطفال بنينا وبنات بصفتهم أبناء
قرننا القادم وأصحابه !!

القرن القادم قرنههم و لشرب من البحر . هم لا يروننا أصلا . قرن
العواجز الثانى الذى لن يفرطوا فيه أو يلقوا بلجامه إلى أيدي هؤلاء الأطفال
صغار العقول، وهؤلاء الشبان قاصرى التجربة !!

تحت شعار (نحن الذين بدأنا التجربة ونحن الذين سوف نقودها إلى مآلها
الأخير) يمدون فى جدية حقيقية . لا يلتفتون شمالا أو يمينا . يقصون شويط
القرن الجديد بعد أن أقاموا له الصروح بأيديهم ، واكتروا عواجز مستوردين
من بلاد الإفرنج لأنهم أكثر خبرة فى الاحتفال "لنا" بقرننا . الصروح التى
سيمرون من تحتها على دقات الطبول الافرنجية ، والبوابات المهيبة التى دفع
ثمنها الفقراء عرقا وأرقا . لم يشيع القرن الماضى نهمهم . لقد اعترضتهم
خلاله بعض التجارب السخيفة والأصوات العالية التى سدت عليهم الطرق

بضعة أعوام ، لكنهم سرعان ما استطاعوا - بفضل من الله وبِعونه - الإفلات منها والالتفاف من حولها لتطويقها وإسقاطها ليعودوا من جديد إلى مواقع إدارة زُرمنة ليودعوا القرن الماضى مبتسمين!!

سوف ندخل القرن الجديد مسلحين بجوعنا وفقرنا وتخلفنا وعثية حياتنا ولا منطقيتها . لن يعرف أبناؤنا أن قرنا مضى وقرنا جاء إلا من تلك الكتابة الطباشيرية التى يخطها المدرس على السبورة ميلاديا وهجرياً . ربما تسالت إلى آذانهم زاحفة من تحت سفح الهرم ذى القبة الذهبية - أغنية تقول : (يسقط القرن القديم . يحيا القرن الجديد)!! بينما نحن عواجز هذا البلد واثقون بأننا سوف نعيش إلى الأبد . الأغنياء يورثون أبناءهم غناهم ، والفقراء يورثون أبناءهم فقرهم الخالد فيستمر الحال كما كان ليصبح القرنان لنا !!

نفتح الجديد بنفس الوجوه والأسماء والخلق ومانشيتات الصحف والكذب اليومى فكأن الغد هو الأمس ، بل إنه هو بالتأكيد . نصبغ شعر الرأس إمعانا فى التخفى - عدة النصب - معتقدين بل واثقين بأننا نخدع الصغار الذين نحتل أماكنهم بإيهاهم أننا صغار أيضا ، وأننا نمثلهم !!

نملأ الدنيا ضجيجا بأننا ندخل القرن القادم مسلحين بكذا وكذا وكذا وفى الحقيقة نحن مسلحون فقط بما نجيده . بما تدربنا عليه لسنوات وسنوات ، مما ألقى بنا فى آخر صفوف الزاحفين نحو الغد !!

نحن لا نملك سلاحا نباهى به الأمم غير كذبنا القومى اليومى . تدربنا عليه وتبادلنا المواقع فى ساحاته حتى صرنا خبراءه الأهم فى الدنيا . تستعير الدول مهارتنا فيه ، وترنو نحونا أسماع الأمم المتقدمة لترى كيف نمارسه دون خطأ وربما استعانت بخبرتنا فى خداع شعوبنا !!

طواير من العواجز والعجزة فى بزات رسمية يحملون القرنين فوق الرؤوس. لن تجد قريبا منهم ولو بكيلومترات شابا واحدا. فالشباب ملقى بهم فى ظل الصفوف الخلفية لا يهمهم إن ذهب قرن أو جاء قرن . تركوهم

للإعلام المميع ، والفكر المضيع ، وأضاعوا لهم سلك الغيبيات فاعتقوا
التطرف والمخدر وفقدوا الجدوى وكفروا بهذه الأمة وبقاداتها وأبطالها
ورموزها السابقين . انتزع الشاب من قلبه فكرة الوطن بكل قسوة حين اكتشف
أن خداعه إنما يتم تحت ستارها ، وأن إقصاءه عن الاهتمام بأمر بلاده إنما يتم
فى ظل هذه الفكرة البائسة البلهاء الكاذبة المسماة الوطن . ذلك الوطن الحافل
باللصوص والقتلة والأوغاد . الوطن الذى لا يهبه عملا ولا موقعا ولا لقمة
ولا يحترم وعيه أو خبرته والذى يتعامل معه على أنه عبء على الحياة
وعليه .. الوطن الذى يترك ابنه الحالم بالغد المشرق راقدا فى يأسه المزمّن
تحت جدران القرن القديم بلا مأوى . بلا أمل فى بيت صغير وأسرة سعيدة .
يوفرها له دون أن يضطره إلى تقبيل الأيدي ومداهنة اللصوص ومنافقة
الحقراء .

يرحل أصحاب الثروات والمواقع والمال سعداء منتفخى الأوداج إلى القون
المقبل ، وترحل قطعان الفقراء وجيوش الأميين من قرننا هذا إلى قرون
ماضية وهم ينظرون فى بلاهة إلى قمة الهرم الذهبية ، ويتبولون على قارعة
الطريق !!

القرء .. والمارد !!

ننظر فى الصراع العربى الإسرائيلى على أننا نصارع قوة ، وكان يجب منذ البداية أن ندرك أننا نصارع عقلا . عقلا شكلته "فكرة" قد يراها صالحة ونراها شريرة . يرى فيها خلاصه ، ونرى عبوديتنا . نرى فى تحققها نهايتنا ، بينما هى تشكل له طريقته الوحيدة للتواجد فى الوجود والحياة !!

منذ سلما - بداة - بأن المائة المليون قادرة بغير نقاش على هزيمة المليونين أو الثلاثة القادمين فرادى وشراذم من أنحاء الأرض دون لقاء سابق ولو بأيد خالية من السلاح ، كان هذا يعنى أننا سقطنا فى فكرة القوة الكمية دون وضع اعتبار لتمزق أشلاء المارد العربى وتفكك مفاصله وعلو كرشه ونقل خطواته بفعل أمراضه المتوارثة والمستحدثة .

معنى هذا أننا تعاملنا معها كقضية قوة بدنية دون أن نكتشف أنه أصبح للقوة مفاهيم عصرية وواقعية ألغت المفهوم القديم الذى تبنيناه ولم نغير فيه شيئا ، فالعرب مخترعو ومقدسو الثبات ، ولا يفزعهم سوى التغيير .

إعتبرناها (خناقة) ، وعلى أساس أن الكثرة تغلب الشجاعة ، استرحنا أمنين وراهننا على الغد باطمئنان لا يدخله الشك .

خضنا المعارك ، فشلنا ونجحنا . كان فشلنا نجاحا ونجاحنا فشلا أحيانا . لكن لم نلقت إلى النتائج . لم تجربنا التجارب على تعديل مفهومنا عن القوة ، أو أن نكسب ملامحه ألوانا تتسق مع واقع الحال . نسبنا قوة اليهود إلى من يفقون من خلفهم ويساندونهم كإنجلترا وأوروبا ثم أميركا !!

وظلت نظرتنا لعدونا نظرة المارد للقرد . بينما القرد ينط ويفط من شجرة إلى شجرة يجمع العدة والعتاد ، ويبترز البلاد . يتسلل فى الغابة ويتوغل لا يكف عن الرعب والصياح وهو يستغل التعاطف ويكنز السلاح . لا نكف عن مساحرتة وهو يمثل "عجين الفلاحة" ويستعرض أماننا مؤخرته .

كل ذلك ونحن ننظر للبدن دون العقل . للأعداد القليلة ، التى رآها المارد بعيونه هائمة هزيلة . متجاهلين آليات الفكرة التى منحت العدو ذلك الارتباط الفذ فى اتجاهه نحو الهدف المنشود ، والنصر المقصود . هكذا نظمتمهم الفكرة وجندهم العقل العصرى وجعل لكل منهم - طفلاً أو شيخاً رجلاً أو امرأة - دوره المهم والجوهرى ومكانه المؤثر من هذه الماكينة الصغيرة الجبارة ، حتى صار القرد غولاً يحكم ويتجبر . يهز المائة مليون التى زادت ملايين وملايين بعد ذلك دون خطورة تذكر . زادت أعداد الأمة زيادة جبارة ، لكنها زيادة (فرط) لا يرتبط أحد فيها بأحد ، رغم الحديث عن وحدة الأرض والديين واللغة . لا يرتبط قطر فيها بقطر إلا بالأحلام الرثة والكلمات الفارغة والقصائد العصماء والبغبة !!

أمة تخاف على مغانمها . تلتصق كراسيها بحكامها . تمزقها العداءات المفتعلة والمكاسب الشخصية ، والطموحات الفردية . تسير إلى الفناء بخطو حثيث ، تحت عيني قردنا الذكى الخبيث !!

هكذا تشكلت المواقف : (عض أخى ولا تعض رغيفى) . تمزقنا وقد صار تلاحمهم أنموذجاً . صار لهم - بالصبر والعمل والدأب - قضية أثارت تعاطف العالم ، ولم يتيق لنا من يتعاطف مع مأساتنا وقضيتنا الواضحة العادلة !!

صار الكثير قليلاً ، وصار القليل كثيراً !.

لقد محا حكام العرب وعى شعوبهم . غسلوا ودعكوا بالبترول الخام كل شبهة إحساس وطنى أو قومى . حولوا شعوبهم إلى عرائس ماريونيت يمسكون بخيوطها يرقصونها ويضحكونها ويبكونها كما يريدون !!

أصبحت الأعداد القليلة للعدو قوة عقلية انتشرت كالسرطان فى آسيا وأفريقيا بعد أن ثبتت أماكنها ورسخت قواعدها فى أوروبا وأمريكا ، بينما تغوص أعدادنا الكبيرة وجموعنا الغفيرة فى طين التوحييل والتجهيل والترحيل زائدين عن الحاجة . تلفظهم أوطانهم للخارج أو للدخل . إذا ارتفع رأس كان السيف بانتظاره ، وإذا اجتهد مجتهد كان عقابه التكفير أو السجن فى حالات الرأفة !!

خمسون عاما ، امتطى فيها القرد العاقل ظهر المارد الجاهل ليقدم عروضه فى مدن العالم و ساحات العواصم الأجنبية ، والعالم يتفرج ويتابع ويبتسم !!

خمسون عاما ، صارت جماهيرهم تسير حكامهم . يستطيع فرد واحد أن يقول "لا" فترتبك الدولة . بينما حكامنا يعلمون جماهيرنا الخضوع والخنوع ، والخوف من التشريد والجوع ، ويختلقون لهم الممنوع بعد الممنوع ، حتى محوا ملامحنا . فقدنا إحساسنا بالذل والمهانة . فقدنا قيمة الفكر وجدوى الجدية . عشقنا التعدى ، وكرهنا التصدى . سوائم تفترش رمال الصحراء المقدسة . كتل بشرية صماء عمياء تزحم شوارع المدن المدنسة . غرقنا فى التأويلات والتبريرات ولعبة الثلاث ورقات ، وانتظار حلقات المسلسلات ، والدروشة والمخدرات ، وحاصرونا بالأزمات بعد الأزمات ، وباعتنا لأعدائنا الحكومات بعد الحكومات !!

اتسعت بيننا الهوة . صرنا نموذجا للضعف وصاروا رمزا للقوة . نحرر الأمة فى مواضيع الإنشاء ، وهم لا يشبعون قتلا وذبحا وهدما واستيطاننا وإنشاء . يغيرون خريطة الوطن كل صباح . لا يزعجهم صياح الهيئات الدولية مهما علا الاحتجاج واحتد النباح .

وإذا ما تذكرنا مأساة فلسطين ، بل مأساة الأمة بمجملها : تلك الفضاءات التى تغمرها الدماء وتسكنها أشلاء الشهداء . القرى المهدمة . غربة أهل الأرض الأصليين . لوعة الثكالى وأهات الملتاعين . المذابح التى بلعها مبور

السنوات . حين نتذكر كل ذلك فيجتاحنا الألم ويلفحنا الغضب ، فإننا لا ننسب الفضل لحكامنا العرب ، بل الفضل يرجع إلى عدونا ذى الذاكرة الحديدية الذى ما يفتأ يذكرنا بأمجاده وبطولاته وخلقه كونا من العدم .

يحتفل فنتذكر . يرقص على أنقاضنا فنتفكر . حكامنا مهرة فى استعمال الجواريف لردم الحقائق ومحو الآثار . يذكرون أمجادهم الوهمية ، ويقيمون أعيادهم الغبية ، بينما عدونا الحصيف ، ماهر فى فحت الحفر مرة أخرى . مولع بنيش القبور والتباهى باستعراض جثث الأمس .

هذا ، وما زلنا فى رحلة الغياب عما تخبئه لنا الأعوام . نتسول عفوا من عدونا نطلق عليه اسم (السلام) !!

ولأن المارد الأحمق ظل متمسكا بمفهومه عن قوته رغم تغير الدنيا من حوله وتبدل الأحوال ، فإن القرد المتفاز المتسلل استغل هذا الثبات خير استغلال !!

امتطى القرد البارد ، ظهر المارد . وأغلب الظن أن المارد سوف يلد قودا فى كل من الأقطار ، وما علينا سوى الانتظار !!

الأسد .. واللبؤة !!

مات "روميو" ، أكبر الأسود سنا فى السيرك القومى المصرى منذ عدة أيام بسكتة قلبية أمام الجمهور ، بعدما هجرته وليفته "مبروكة" مفضلة عليه أسدا أصغر منه سنا . كان "إبراهيم الحلو" مدرب الأسود مع السيرك بالإسكندرية ، وإذا بالأسد "روميو" الذى بلغ من العمر عشرين عاما يسقط على الأرض . فأسرع "الحلو" باستدعاء الطبيب الذى حاول عبثا إنقاذه حتى لفظ أنفاسه مصابا بأزمة قلبية . أكد الحلو أن روميو كان يعيش هو ووليفته "كريمة" فى قفص واحد منذ سنوات عدة ، إلا أنها - فى الفترة الأخيرة - هجرته بعد ما جذب انتباهها أسد أصغر سنا يدعى "هشام" - ١٠ سنوات - مما أدى إلى امتناع "روميو" عن الطعام ، ليحدث ما حدث . هذا ما فعله الأسد النبيل . خانته لبؤة فانتحر . خانته فى سيرك صغير من سيركات العالم الثالث . السيرك المصرى متواضع طبعاً بالنسبة للسيرك فى روسيا أو دول أوروبا الشرقية أو الغربية أو أمريكا وجمهوره أيضا لا يعد جمهوراً بالنسبة لجبال الجماهير التى نراها كلما اتاحت لنا الفرجة على سيرك عالمى سواء فى مكانه هناك أو على شاشة التليفزيون .

إن "روميو" أسد سيرك الحلو لم يقصد بانتحاره أمام جمهوره أن ينال شهرة جماهيرية أو أن تنصدر صورته صفحات الصحف والمجلات ، بدليل أن خبر موته لم تنتشره جريدة مصرية قومية أو معارضة فى مصر ، وإنما نشر الخبر فى إحدى الجرائد العربية التى تصدر فى لندن . احتضن روميو مأساته . رأى الخيانة كالحية تطل كل يوم جزءا فجزءا . ورأى مبروكة تبتعد كل يوم بضعة سنتيمترات تقربها نحو "هشام" . أثبت كرامته أن ينبهها أو أن يشير إلى التحول

فى العاطفة وذبول فكرة العشرة التى قامت عليها حياتهما فى رحلة السيرك .
كيف لملك الغابة أن يعتب أو يدمع أو يتوسل ؟ كان يمكن له أن ينتقم ، أن
يضر بها بقبضته فيقصم ظهرها . لكنه لم يفكر فى الانتقام . كيف ينتقم ممن
قاسمته الوجبة والسجن - الققص - وفرحة الناس والتصفيق والاستقبالات
والشهرة والحب والجنس ومألت فراغ حياته بعيدا عن حياته الطبيعية التى
منحه حبها حريته التى فقدتها منذ ترك الغابة ؟

رأها تقترب من "هشام" . تفتعل الاقتراب منه . تتمحلس وتتلكأ . نظر إلى
نفسه. لقد وهبها أحلى سنى حياته ، وها هى تخون العاطفة والسنوات نهـارا
وجهارا !!

فى البداية كانت تنتظر إليه لتكتشف إن كان يلحظ !! ثم رويدا رويدا أخذتها
العاطفة وعصفت بها النزوة ولم تعد تلتفت إليه أو تهتم بمشاعره . فى النهاية
قررت الانتقال نهائيا إلى ققص "هشام" تمارس الحب معه علنا حيث تجد
الراحة والكفاية!!

لما اكتشف "روميو" أن الأمر أصبح حقيقة واقعة وأنها ليست مجرد نزوة
وأن "مبروكة" لن تعود ، إنهار ، فقد لياقته على مسرح الأحداث الليلى فى
دائرة الضوء فى "السيرك العالمى" كما يطلق عليه أصحابه !!

قال له إبراهيم الحلو كعادته : "هأرى أب" ، قفز روميو - كعادته - ولكنها
كانت قفزة الوداع .. ليسقط ميتا متشقق القلب !!

لم يصفق الجمهور لأنه لم يفهم شيئا ولم يكن له علم بقصة مبروكة
وهشام !!

هذا ما فعله الأسد هنا ، وتعالوا لنرى ما فعلته اللبوة هناك !!

كانت اللبوة قد أدمنت الكرسي الذى يحكم العالم من عليه أسدها المدلل اللين
الذى لا يملك من صفات الأسد شيئا ، والذى يستأسد على الشعوب الصغيرة
فيحطم دورها ويبعثر أخصاصها ويقتل أطفالها ويسجن رجالها ونساءها داخل

جدران الرعب والعوز والقهر . أسد بقلب دجاجة ولبدة خروف ومنقار حدأة . عرفت منذ أيام الجامعة أن زوجها يخونها وقبلت . عرف هو أنها عرفت وقبلت!! حين صاحت به أمه يوما : "لماذا قبلت بهذه المرأة التى تلبس على عينيها "قعر كباية" ولا تتمتع بمسحة جمال؟" قال : "هذه من أريدها ، ولم يقل لها لماذا" ؟

تواترت خيانات الأسد للبوثة فى المكاتب الملحقة بمكتبه فى الغابة الموحشة . تجاهلت وأنكرت ودافعت . إنها سيدة الغابة الأولى الآن : دعه يلعب دعنا نصعد . كانت موقنة - من قبل التحقيقات - أن أسدها الهائج يخونها مع بعض اللبوات الصغيرات الجميلات الشهيات . لكن شهوتها كانت دائما متجهة لما يتيح لها المنصب بصفتهما الأسد الأول واللبوة الأولى فى العرض المسرحى بالسيرك الأول فى العالم . حين اشتد الضغط الصحفى بل والقانونى والبرلمانى ، أعلنت أن زوجها يتعرض لمؤامرة سياسية خسيسة وأن إحداهن لم تقترب من سوستة سرواله المحكم!!

قبض الله للأسد نمرا بالغ القسوة أثبت خيانتة - علنا - للبوثة ، وكذبه على أمته ، ودفع به إلى الاعتراف بإدمان فعلته !!.

هنا ، "أحست لبوثة البحبوحة "ببعض" الحرج". قالت : "أحس أنى مجروحة . اصطحبته فى رحلة طويلة "ترخى" الأعصاب المشدودة ، وتنسيها الواقعة المحدودة . لم تنتحر - كما انتحر روميو المصرى - لم تطلب الطلاق . لم تسع إلى الفراق . على ما يبدو أن الأسد يختلف فى طباعه عن اللبوة . انتحر روميو من هول خيانة مبروكة . إمتنع عن الطعام حتى فارق الحياة . أما لبوثةم فإنها قررت أن تغلب العقل على العاطفة ، وأهمية المنصب على المبدأ ، والحياة المهينة على الموت النبيل . إخص !!

دائرة الشذوذ !!

لم أعد ألومنى حين أضبطنى متلبسا بالحق على أبى بل وعلى آباء معظم أبناء جيلى ، هؤلاء الطبيبين القادمين من زمن يختلف لونا وطعما ورائحة !!

كان والدى الشيخ منضبطا كالسكر المعتدل . منفلتا من المتكرر . يحاول أن يجعل من يومه صورة مطابقة لأمسه ، وأى اختلاف بينهما يدخل من وجهة نظره فى "دائرة الشذوذ" كفانا الله شرها !!

ألف "الألفية" فى النحو ، و"البردة" فى مدح الرسول متبعا خطى أجداده ليطابق بين صورتى الخلف والسلف . حفظ وردد نفس الأدعية توسلا وتيمنا .

أم الناس فى الصلاة فى صورة لا تختلف من قريب أو بعيد عن صورة شيخ ربما يحمل نفس الاسم ، كان يصلى فى نفس المكان ويبتهل بنفس الصوت من قرن مضى أو عشرة !! تركز كل اجتهاده فى سعيه إلى اكتساب ما يجعل منه فى النهاية النسخة المعادة بأمانة من صورة أنموذج تناسلت منه ملايين النسخ المتشابهة!!

كان معلما يدرس العربية ، وكان يضرب - بالحذاء أحيانا - من يهمل تجويد خطه . كان يؤمن لا بقداسة اللغة العربية فحسب ، بل وباحترام وتبجيل وتوقير خطها العربى والركوع فى محرابه بصفته الطريق الممهّد الذى يقود إلى الجنة فقد كتب به القرآن الكريم !!

كان يعتبر الخروج عن قواعد الخط وقوانينه - بأنواعه المختلفة . شذوذا !! كان الوالد مآذونا شرعيا ، يحرص على ترديد نفس النص فى كل زيجة ،

ونفس النص فى كل طلاق ، لا يزيد ولا ينقص حرفا ويعتبر آية مخالفة حتى لطبقات الصوت أثناء قراءة بيانات الاتصال والانفصال .. شذوذا!! لم يفكو - ولو لمرة واحدة - فى تغيير لفة العمامة أو تفصيلة الجبة والقفطان . كان لا يغير أصدقاءه بل كان يؤمن بأن الله خلقهم ليكونوا أصدقاءه ، وزرعهم من حوله وثبتهم فى الأرض يراقب كل منهم رحيل الآخر بجنان ثابت وإيمان قوى بأن الخالق يسترد ودائعه الواحدة تلو الأخرى ، وأن محاولة التفكير فى تحاشي دورك فى الطابور أو إعادة الترتيب ، مجرد التفكير فى ذلك أو التردد فى اقتحام العتبة الفاصلة بين الموت والحياة هو بالتأكيد نوع من الشذوذ !! قوانين ثابتة محكمة نبنت من حولنا كجدران السجون . مجرد محاولة تسلفها أو مغادرتها شذوذ . إنها الجدران ذاتها التى سوف نورثها لأبنائنا من بعدنا . السجن الخالد المبارك ، نهبه لهم ، ونعلمهم وسائل التواؤم داخله ، ونحذرهم من أن يحسوا بعدم الرضا والسعادة والاكتفاء أو الرغبة فى الحرية بل علينا أن نقنعهم جيدا بأن الخروج من هذا السجن الآمن شئ غريب وشاذ !!

هذا ما فعله والدى بى . وما فعله آباء أصدقائى وأبناء جيلى . كان شعارهم الأكثر ارتفاعا وأوضح كتابة هو : (الخروج عن المألوف - أيا كان - شذوذ)!!

لكننا - ومنذ وقت مبكر - بدأنا نرى أيامها من يثور على هذه القوانين فى سرية تامة . من يحاول خيانة الآباء ومعتقداتهم ، والانحراف عن هذه القوانين وتذوق ما يقع خارج جدرانها من متعة بدأ البعض يخرج عن المألوف بل إنهم اعتنقوا الشذوذ فيما بعد منهاجا وطريقا عمليا فى الحياة!! شذوذا فى السلوك . فى العمل. فى الصحبة واختيار الأصدقاء . فى الجنس . واجهوا نظرة الناس القاسية لهم فى البيئة المغلقة التى تجلد حين تدين ، وتعرى حين تتهم . لكنهم صبروا صبر الأنقياء الأتقياء ، حتى اكتسبوا المناعة ولم تعد تلزمهم شرعيتنا فى كثير أو قليل . أكملوا المشوار فى صلابة . من هنا اكتسبوا هذه القدرة على المقاومة ومواجهة الآخرين والبجاجة والوقاحة ثم زحفوا إلى المدينة التى

تحتفى بالجديد وتكافئ المبادرين والمتفوقين وتتيح الفرص لممارسة كل الأنشطة من القيادة إلى القوادة ومن صرخة الشهيد إلى "شيل الحديد" !!

فيما بعد . بل فيما بعد البعد ، حيث لم تعد لدينا فرص للتراجع أو القدرة على تعلم نشاطات جديدة . عرفنا وتأكدنا أننا أضعنا العمر حين لم نخرج عن المألوف !!

لكي نعلو ، لكي نصبح شيئا ، لكي نضمن مستقبل أبنائنا ، كان يلزمنا قليل من الشذوذ - ليس مهما أن يكون قليلا - قليل من الفساد ، بعض الانحراف ، شيء من البجاجة والصفافة ، بعد أن أكتشفنا أنها عناصر الصعود ، وأنها القوى المحركة للمال والمناصب وألوان الدنيا وحياء البشر ودوافعهم ومواقعهم !!

يوضع الفاسدون في أهم المواقع وكأنهم اختيروا بعناية ليخرجوا أحشاء مصر . سرقوا وحوكموا وبرئوا أو وقعت عليهم أحكام صغيرة ، وهما هم يمشون كالطاوويس تيهيا . ترفعهم على أكتافها الثروات التي نهبت والمكاسب التي ما كانت لتتاح لهم لو لم يخرجوا على المألوف !!

خان أصحاب المواقع مواقعهم فصاروا نجوم المجتمعات !! خان أصحاب الأخلاق أخلاقهم فرفعهم الشذوذ إلى أعلى الدرجات . تسلحوا بالقوة وقبضوا بيدهم على الصولجانات . وأصبحوا ممن يسهمون في كتابة تاريخ بلد الشرفاء الذي يزخر بالعجائب والمفارقات !! صار الشذوذ ، قرين الشهرة والنفوذ !!

سلم الصعود إلى الأعلى وملامسة المجد العصري !!

ها هم من خرجوا عن المألوف أصبحوا أمراء ووزراء ومدراء وخبراء . وهما هم من لم يغادروا "الرصة" القديمة صاروا خفراء وأجراء بل صاروا بالكاد بالكاد فقراء !!

إنهار الحائط الفاصل بين الحلال والحرام ، المألوف والشاذ . بل لقد ارتفعت أسهم الشذوذ مما يؤكد أن ثورة على النمط القديم للحياة والحياة تفجرت وقلبت الموازين . أصبحنا مثل أوروبا . نحمل مشاعل التنوير ونحن نطأ عمائم السلف المتخلف ، متحصنين بوعينا الخاص وعبريتنا التي يعتبرها الجاهلون شذوذاً وهي أقصى وأقصى اختيار لتحقيق الحرية !!

نحن لسنا ضدهم أو ضد قناعاتهم . نحن فقط ضد أن يصبح هذا هو جواز المرور الوحيد للاعتلاء والامتلاء والنجاح والفلاح ، مما يفسد علينا صرف جدران الزنازين الموروثة ، لأجيالنا الموكوسة !!

ربط السراويل !!

تماما كما انفتح "خرم" الأوزون واتسع فى سنيننا هذه ، حدث خرم كبير فى الستينيات من هذا القرن الذى يتأكل الآن . اسمه "خرم الأحلام" . وكما أحدث خرم الأوزون تغييرا رهيبا فى البيئة والمناخ وهدد الدلتات بالغرق ورفع من درجات الحرارة وغير من طبائع الأجواء ، أحدث "خرم" الأحلام فى الستينيات تغييرا رهيبا فى المناخ السياسى والفكرى على وجه الكرة الأرضية وغمر قلوب البشر وعقولهم بفيضان من الأحلام التى كان بمقدورها لو تحققت تغيير العالم مرات ومرات !!

ومثلما تحاول أمريكا - سيدة العالم اليوم - ومعها أوروبا إيجاد الحلول والبحث عن الوسائل التى تقضى على مسببات التلف الذى أصاب الأوزون وسد خرمه الكبير . فإن أمريكا وأوروبا لم تألوا جهدا وفكرنا كثيرا ونجحتا أيضا نجاح فى سد "خرم" الأحلام القديم حتى كفنا عن أن نحلم ، ولم تعد تزورنا فى المنام إلا تلك الأحلام العادية الهزيلة كلقاء امرأة اشتبهت بها فى الواقع ، أو زيارة أمك الميتة من سنين ورؤيتك لها تبسم وهى تمر كالطيف لتختفى خلف جدار !!

باله من "خرم" وباله من أحلام ، وباله من فترة تلك الستينيات من هذا القرن : كانت مؤخرتنا مكشوفة لا شك انكشافا جماعيا لأننا - وفى ليلة واحدة تقريبا وفى كل أنحاء العالم تقريبا - حلمنا جميعا لفقراء العالم بأسرة واحدة ولقمة واحدة وشمس واحدة ونشيد واحد وغد واحد!!

ألغى "الخرم" فى مصر بحزمة وافرة من أشعة الحلم . كنا بضعة أشخاص نعد على الأصابع لكن الخرم سبح بنا لنحلم بسرقة جنة الأغنياء لنهبها للفقراء ، حيث يختلط العمال المنهكون بالفلاحين التعساء بالملائكة فى أجواء

روحانية نقية شفافة فى تلك الجنة ، حيث يفقد البدن الإنسانى ثقله ويتحول البشر إلى مجرد أطيايف ترفرف بأجنحة الحلم ، فالناس فى الأحلام بلا وزن !!

وحين صدم الثائرون بثقل المواجهة من قتل ونفى وسجن ، لم يفق العالم من الحلم بل زادهم الاضطهاد اشتعالا ، وصدحت وارتفع صوتها فى داخلنا موسيقى الحلم الهادئة يعزفها عشرات المفكرين الذين سبقونا فى الاهتمام إلى الفكرة وتطويعها وتطويعها وخلق آليات جديدة تمكنها من التحايل على التحايل المضاد . كان الرفاق فى كل العالم "ونس" الرفاق فى كل العالم . أشعلوا الروح وبعثوا الثقة بالعقيدة الجماعية والوحدة فى الإيمان الأسمى فتأكدنا من أننا لا شك محققون هذا الحلم الكونى وأن أعمارنا جميعا تبدو ثمننا زهيدا لضحكة الفقراء !! على الرغم من أن الفلاحين يتخففون - عادة - من ملابسهم الداخلية بالذات صيفا ، إلا أنهم لا يعرفون مؤخراتهم حين ينامون فى الحقول أو الأجران أو الدور حذرا وخوفا من سقوط عين غريبة عليهم تكشف مستورهم !!

سخروا من أحلامنا وإن لم يظهروا ذلك . كانوا يرون هشاشتها ورومانسيتها ، فأيقنوا أن لبس البناتيل يسلح الإنسان بالبلاهة ويورثه العبط !!

لقد خاضوا أكادسا من تواريخ العسف والظلم والسواد والإبادة اللا إنسانية ورأوا أمثالنا من المدافعين عنهم يموتون تحت سنايك الخيل وبسناكى جنود الحكام . رأوا اشتعالات الأحلام وانطفاءاتها رأى العين ولا مسوها باليد وممصصوا مرارا ، ومضوا يتفكرون ويستحلون العبرة فيؤمنون بأن القسمة أبدية ، وأن الخط الذى يفصل بين الفقراء والأغنياء لن تمحوه أزمنة ولن تغسله دماء ، وأيقنوا من هزيمة الطليعة فى النهاية أو خيانتها !!

تلك الأحلام التى زحفت وجرفت معها كقش مياه الفيضان . الأحلام التى سلحتنا بالحتمية التاريخية ، فأمنا بها ونحن نرى العروش تنقوض والثورات تتحقق وهدير الملايين يصعد الغبار وينشر الرايات ويزار بأناشيد الحرية والعدل !! انفجر العالم . عشرات البثور البركانية تغلى وتنفجر وتسكب .

آسيا وأوروبا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . من بلاد الثلوج إلى مزارع الموز
والكاكاو الحارة . لينين . ماو . هوشي منه . كاسترو . جيفارا الذى لا يكتفى
بتحقيق الحلم الكوبى فىسعى للموت فى أحراش "بوليفيا" بحثا عن حلم أكبر .
اشتعل العالم واتسع الحلم وانكشفت قوى الطغيان وانسقتا مع البحر الهائج .
أحلام رائعة ملونة خفاقة تحنل بتحققها فى العلى والأشعار المصاحبة تطير
من بلادها لتستقر فى صدورنا . ناصر . تيتو . سوكارنو .. إلخ .

لم نكن نحن فقط . لا شك أن كل مؤخرات العالم كانت مكشوفة فى
الستينيات قبل أن تستيقظ الكرة الأرضية على دبيب خطوات العسكر تتخطف
أياديهم الثروات وتتاجر فى الإنجازات وتهدى أعداءها - مجانا -
انتصاراتها !! يركعون أمام الأعداء القدامى ، يبيعون الجموع بثمان التراب ،
والأناشيد بالقفه ، ويفرشون بالماضى على الحصر فى الأسواق الفقيرة !!

يسقط الصرح الكبير . تنهاى جدرانه على أحلامنا الصغيرة فنقتلها .
تفتح نوافذ الهزيمة وتتقوض النظريات . تنتشم التماثيل الرائعة التى كانت قبله
الزائرين والمريدين . تصعد صور الوجوه المربية ظافرة مبتسمة !!

يستشرى الفساد فلا يقاومه أو يفضحه المهزومون . الفاسدون الشرسئون
يستثمرون هزيمتنا . يمصصونها حتى النخاع . يستمرئون إذلالنا ويتيهمون
كالآلهة فى استعراض للقوة ومظهر لا شك يستحقونه . يسحقون بسياراتهم
الفارهة وأحذيتهم الغالية كل ما يدل علينا . يخفون آثار أحلامنا القديمة تماما .
يستوردون آلات جهنمية جبارة تصعد بهم إلى الذرى لإغلاق "الخرم" الكاذب
(خرم الأحلام) . يفتخون من أماننا وورائنا عشرات من الخروم البديلة !!

فى الليل بعد أن تزورنا أحلامنا التقليدية النافهة تتسلل إلى مناماتنا تلك
الأحلام الحزينة الجميلة ، الشهيدة النبيلة . تمر غربية كالأطياف . كأغنيات
الوداع . فزعة منهكة كالطيور المهاجرة ، على الرغم من إحكامنا ربط
السرابيل على المؤخرات بإحكام !!

العبرة بالخواتيم !!

أهم عيوبنا سببها أننا تلقينا حكم أمهاتنا فى وقت مبكر جدا عن نضج
بنا. كنا . كن يتوقعن الموت منذ وقت مبكر أيضا ، فأطلقن الحكمة ونحن بعد
أطفال لم نعرفنا الحياة ولم نعرفها فلم نستفد من هذه الحكمة كما يجب . دخلنا
معترك الحياة العملية بعد أن كن أنهكن أو صمتن أو يسئن من قدرتنا على
الاستماع وبعد أن أجمعهن حزن الحياة المحبطة الكبير .

خضنا الحياة بوعى مستقل بتعاليه على وعيهن وسذاجة أقوالهن التى
استبدلناها بكتب الأولين والآخرين ، فرحنا نواجه الحياة بما اكتسبناه من
صفحاتها ، نخرج من تجربة لندخل إلى تجربة ونستبدل مدينة بمدينة ، كما
نغير حذاء بحذاء - مثلما قال شاعرنا "برتولد بريخت" - وفى غمرة أهوال
التجارب سقطت أقوال الأمهات . أسقطها تأكدنا من أنهم لم يعيشن تجارب
مماثلة ولم يخضن حروبنا التى خضنا وأن حكمتهن "خض لقرب" التجارب
المتاحة فى عالمهن البسيط لفصل الزبد عن اللين ، فى زمن تعقدت آلاته
وتشابكت ماكيناته وتعرجت به سبل التجارب التى لا تصلح معها الحكم
البسيطة للأمهات البسيطات الساذجات فلم نعد نتذكر حكمهن إلا بعد أن تقع
الفأس فى الرأس ، وبعد أن تنتهى تجاربنا الكبرى إلى حكمهن المتواضعة
ونكون خرجنا من التجربة برمتها ولم تعد ثمة فرصة للاستفادة !! (العبرة
بالخواتيم) هكذا كانت تعلق "فاطمة قنديل" أُمى على مهازل الزمن ومفاجآته
ومفارقاته وتلحقها بالدعاء الخالد الذى يعرفه البسطاء والفقراء جيدا : "اللهم

أحسن ختامنا" .

لم نأبه بما قلن أو نتأمله فقد حصلنا على المقابل الثقافى المترجم لحكمتين
مثل: "من يضحك أخيرا يضحك كثيرا" وغيرها ، واعتبرنا أننا حزنا كنز
الكنوز!! رأينا آلهة البشر يسقطون فى وحل آخر الطريق ، والثورات الرائعة
تباع على أبواب الخمارات ، والقذوة تنتهى إلى رمز للفساد والانحطاط .
صور بشعة للنهائيات التراجيدية غير المتوقعة فلم نتذكر قولة الأمهات
الأميات : "العبرة بالخواتيم" ولم نستدل على حكمة الحياة البسيطة التى تصلح
لكل زمان ومكان مهما تعددت التجارب وتقدمت الدنيا إذ للحياة جوهر واحد !!

نظرت متأملا ما حولى فهالنتى المسافات بين البدايات والنهائيات . كل
الأمور انتهت إلى غير غاياتها . عرفت ساعئذ لم لا يتحرك الفلاح المصرى
أو يندفع إلى ما نندفع إليه مفضلا التأنى والصبر وانتظار ما يؤدى إليه ماء
الأحداث الجارى . ليست سلبية ولكنها دروس التاريخ والتجارب الكبرى ألهمته
أن الأنهار تتحرف ، وأن الغايات تستبدل ، وأن العبرة بالخواتيم !! الأفراح
تقود إلى الأحزان ، والأحلام تنتهى إلى خيبة المحصلة !!

الثورة الفلسطينية التى كانت شطحة من شطحات الوهم تحولت إلى حقيقة
ورجال وثور وحركة ومقاومة للعدو وافتداء للوطن بالروح واستشهد
أصدقاؤنا النبلاء من أجلها فالأم انتهت ؟ حكومة من عناصر تتهمها بقية
العناصر بالفساد . أسكنت حجارة الثوار الصغار . استباحت سرية الثوار
الكبار . وسعت للتعاون مع عدوها الذى بقر بطنها فى الإبلاغ عن أبنائها !!
قبل أن تبنى بيوتا لفقرائها أو دورا لمن هدم العدو دورهم أو ملاحئ للعجزة
الذين أضاعوا أعمارهم وفقدوا أبدانهم على طريق النضال ، تبنى ناديا عالميا
للقمار تحت دعوى جمع الأموال من أجل شعبها . فى هذا العصر الفاسد لا
تصبح الحكومات حكومات بغير فساد ، ولم تكن الثورة فى حاجة إلى

استيراده !! هكذا وجدتنى أسترجع قوله "قائنة أب قنديل" القديمة : "العبرة بالخواتيم" !!

بدأ الحكام ثوارا فى أفريقيا وآسيا وغيرهما وانتهوا إلى لصوص يلطخ الخزى وجوهم . يطرودون خارج أوطانهم مفضوحين أذلاء . دفعت جماهيرهم ثمن البدايات والنهايات معا فقرا وتعاسة وتخلفا ورعبا وسجنا وجهلا وإحباطا . يسمن الزعماء وينتفخون كالبالونات لينفجروا فى النهاية دون حاجة لدبوس أو مسمار . يسعون إلى حثوفهم بأنفسهم بعد أن علقوا صورهم فى الميادين وأقاموا الاحتفالات والكرنفالات ومروا بالعربات العسكرية من تحت أقواس النصر والأعلام الكثيفة وألقوا الخطب النارية التى باعت شعوبهم للعدو الأكبر نظير الحماية الشخصية ، وحين أتى الميعاد لم ينقذهم من مصيرهم المحتوم كبير ولا صغير . لم يجدوا الفرصة للاستمتاع بالثروات التى نهبوها وتركوها تتعفن فى البنوك الأجنبية !!

هذا الذى طوى ضحكته بمجرد أن انتهى الناهبون من إسقاط آخر ورقة فى الصندوق واستدار ليدك المدن العربية والأحلام العربية . حاكم العالم الأول الذى مزق العراق وخنق ليبيا وقصف السودان ووقف مع الشر دائما يسأله أهل الشر ويمالؤه أهل الخير ، نطقطق تحت حذائه أوطان وبلدان وبشر ، وكلما ارتفع صوت الأنين ، إزداد سعارا ووحشية . يضرب المربوط ليخاف "السائب" . يقبض على إدارات حكم العالم ومنظّماته الإنسانية واللا إنسانية ليحول الباطل إلى شرعى . يضبط فجأة يرتكب الفعل الفاضح - بطريقة مخزية - يجلس مكوما ككتلة شحم فاسد أمام المحققين كحرامى الحلة ، خائفا متلعثما مفضوحا كرجل تبرز ومسح لتوه مؤخرته بيديه يعبث بهما أمامنا طول الوقت !!

كانت رائحته النتنة تشق شاشات التلفزيون لتزكم العالم فى مطارحه

البعيدة . يكذب طوال فترة التحقيق كما كذب طوال فترة رئاسته . لو وضعوه تحت جهاز كشف الكذب لفرقع هو والجهاز . لو استجوبه المحلفون في "قسم الخليفة" ولزقه المخبر "بسطاوى" واحدة من كفه العريضة على قفاه لأقر بالحقيقة في ثوان ولاعترف بظلمه العراق وليبيا والسودان ونحن وأنتم . لعن الله الديمقراطية وسيادة القانون اللذين يكلفان وقتنا وجهدا ، وأدام الله علينا كف "المخبر بسطاوى" التي هي أسهل السبل في العالم لانتزاع الحقيقة !!

هكذا ، كثيرا ما تطل على "فاطنة قنديل" من قبرها تذكرني بأنها نيهتني منذ الصغر إلى أن "العبرة بالخواتيم" ثم تدعو لى قبل أن تتصرف إلى رقدتها "اللهم أحسن ختامه" !!

الآخر

دائما كانوا هم "الشخص" ودائما كنا نحن "الآخر" .. !!

لم تثر قضية الآخر إلا فى هذه الأيام . تثار لإيهامنا أننا "الشخص" وأنهم "الآخر" . رأى الآخر ، حق الآخر . كأننا الذين كمنا "حنك" الآخر ، وقمعناه وأدخلناه السجون وعذبناه وقطعنا عيشه وحرمنا أطفاله التعليم الجيد وأسرتة الحياة المستقرة والنظر إلى الغد باطمئنان طوال الفترات السابقة .

اليوم جاءوا بالاكتشاف العظيم المسمى "الآخر" . هؤلاء الديمقراطيون العظام أتوا بمكانسهم العصرية يكسحون عن عقولنا تربيتها القديمة ، وأفكارها المتكلسة اللابدة فى "قرعة" الرأس وتلافيها ، ليهدوننا إلى طريق الوعي الجديد فى العصر الجديد ، عصر الديمقراطية التى من أول مبادئها الاعتراف بالآخر وبحقه فى التعبير عن مصالحه ورؤاه التى تختلف تماما عما نرى ونحس ونأمل .

جاء "الشخص" ليلعب دور "الآخر" فى فهلوة لم تعرفها النظم السياسية فى كافة أرجاء الدنيا . أى أنه يلعب الدورين مطيحا بنا ، مبتلعا الدنيا والدين . لا يترك لنا سوى الخواء والبلادة ..!!

كان العصر شموليا - كما قالوا - ولم تكن نحن فيه "الشخص" دائما كنا "الآخر" .

نفس الآخر الذى ولد فى العصر الذى سبق العصر الشمولى وما تلاه من عصور . لم يعترف بحقنا فى القول أو الصياح أو النباح أحد . كانت أبواب السجون مغلقة علينا من الداخل مشرعة لنا من الخارج . لم تكن نملك سلطة أو

كنا قريبين من السلطة أو حتى على حوار مع السلطة . لم يكن فى إمكاننا أن نسجن كان بإمكاننا فقط أن نسجن . دائما وإلى اليوم كانوا هم الشخص ودائما كنا نحن الآخر . الآن يطالبونا بالاعتراف بالآخر الذى هو الشخص ، فهل هذا الآخر فعلا فى حاجة إلى اعترافنا؟ إلى التنازح معنا؟ من نحن؟ أريد - حقا - حقا منا؟ أى حق يطلبه هذا الآخر من شخص لم يعد يملك غير جلبابه وفأسه؟ حق الكلام؟ وهل نسمع فى كل أجهزة البث والنشر سوى صوته وأقواله؟. حق التمثيل السياسى ، هل رأيناهم يلتفت إلى رأينا أو يخجل منا وهو يزيغ إرادتنا وبضربنا بالأحذية وتجتاح ميليشياته المسلحة المجنزرة شوارعنا فى استباحة لم يعرف لها التاريخ المصرى مثيلا من أجل أن يصبح الممثل "الشرعى" لنا ؟

هل هذا الناجح الفالح المستقر الجالس بثقة فوق إرادتنا وأفاسنا يحس بشئ من الضعف أو يهتز إحساسه بعدم رضائنا عليه مثلا؟ كلا على الإطلاق ، وانظروا إلى الوجه . إلى الثقة بالأقوال والأفعال المضادة والأفعال المعادية والأقدام التى تهرس أحلامنا ومستقبلنا باسم تحقيق هذه الأحلام وإضاعة هذا المستقبل . أى اعتراف يريده "الشخص" التاريخى من "الآخر" التاريخى؟ الاعتراف بالآخر وحقوقه!!

الآخر يسرق ، يزور ، يكذب ، يهرب الأموال ، يخرب البنوك ، يستولى على الأراضي والأبنية فى كل الأنحاء . الآخر ينشر الفساد والرشوة ، تسنده أعمدة الدولة . يخترق الذمة الوطنية . يسهم فى التخلي عن قضايانا حتى أصبحنا العراة المجريدين من كل همة تستر !! هل يريدون منا الاعتراف بحقوقهم فى كل ذلك ؟ هل يريدون أن نجيز لهم بيع الوطن واستلاب الحقوق القومية واستلاب حقوقنا وتحويلها إلى حقوق لأبنائهم وأطفالهم : أعلى تعليم وأعلى منصب وأضمن مستقبل ، بينما أطفال الأغلبية العاملة تسف التراب وتجرع الجهل وتبيت على الطوى؟

نعترف بالثراء الفاحش وفقراء الأمة يقلبون اللقمة كالبذلة القديمة ليأكلوها أكثر من مرة !! نعترف للصوص بحق السرقة والهرب بأموال البنوك وامتلاك

ما لا حق لهم فيه وحياة الرغد الفاجرة فى عالم من الجوعى والهالكين !! يا له من كفر بالعدل . أنعترف لهم بهذا الكفر ؟ أنحمل اللافسات التى تمتدح اللصوص وتعلو أصواتنا بالهتافات والشعارات المعادية لنا ؟

نحن نعتزف بحق الآخر فى أن يعيش ولكن ليس على قفانا . بحقه فى أن يستمتع بأمواله شريطة ألا يكون قد مد يديه وسرقها من جيوبنا . بحقه فى أن يعلو صوته بأرائه على ألا تمحو أقواله أقوالنا وتكتم يده فمنا ، وعلى أن يعترف هو أيضا بحق الآخر فى أن يكون .

يا لكم من متبجحين . ألا يكفيكم كل ما تفعلون فتريدون فى النهاية إهانة صمتنا بأن تجبرونا على الاعتراف بحقوقكم الباطلة فتقلبون الأدوار ليصبح الشخص هو الآخر والآخر هو الشخص !

الأخطاء المقصودة...!!

تصاحب الأخطاء الإنسان كظله ، فى العمل ، فى العلاقات ، فى شئونهِ الخاصة الاجتماعية والعملية . طالما أنه حى يسعى لابد أن يرتكب خطأ هنا وخطأ هناك ، وإلا ما كنا بشرا .

تكثر الأخطاء خلال مراحل التكوين الأولى : الطفولة ، المراهقة ، سنوات الشباب الخضراء . وتخفى تدريجيا مع النمو العملى والدخول إلى عوالم التجارب الجديدة الوعة واكتساب الخبرة والحكمة والمعرفة الجلية بقوانين الحياة وأحوال البشر وصنوفهم وأخطار الدنيا !!

والخطأ ليس حكرا على الفرد ، بل يحدث أحيانا - بل كثيرا - كسلوك جماعى بمعنى أن يخطئ شعب أو تخطئ حكومات . وإذا ما كانت أخطاء الفرد لا تؤثر إلا فيه شخصيا ، أو فى دائرة ضيقة ممن حوله ، فإن أخطاء الحكومات ذات آثار رهيبية ، إذ قد تحطم آمال أمة ، وتهدم مستقبلها ، وتمكن منها أعداءها وتغير وجهة مسيرها ومصيرها !!

وإذا كان يمكن إصلاح خطأ الفرد فإن أخطاء الحكومات تحتاج إلى وقت مديد وجهد جهيد . ذلك إذا كانت هناك أصلا نية فى الإصلاح وذلك نادرا ما يحدث !!

أنا من المعجبين جدا بصناع "الأخطاء المقصودة" تلك الأخطاء التى تدر المنافع والأموال على مرتكبيها ، وتكبد الآخرين آلاما وصنوبا من الحرمان والعذاب والمعاناة . حين يرتفع أنين المضار يختبئ المخطئ خلف خطئه يتلمظ ويفرك يديه سعيدا بفوزه ، وحين يطل علينا بيدى حزنا وأسفا لا محدودين ، ملقيا بالمسئولية على أعدائنا أو على الظروف الدولية أو علينا شخصا !!

يقولون - مثلا - إن حكومة الثورة في مصر أخطأت كثيرا في بداياتها ،
أى فى مرحلة الطفولة والمراهقة والصبا وبواكير الشباب . وهو قول لا يبتعد
عن الحقيقة كثيرا ، ولقد عانينا أفرادا وجماعات من تلك الأخطاء ، بل إننا
مازلنا نعانينا حتى اليوم!!

غير أن مرور الزمن وتتابع القادة وتواتر الحكومات أطال من عمر نظام
الثورة هذا . سلح اللاحقين بتجارب تقييم أخطاء السابقين . بل إن هذه
الحكومات جاءت أصلا تحت مبررات وشعارات التصحيح وتعديل المسارات
وإزالة آثار الأخطاء السابقة . لذلك ركز كتابها وفلاسفتها ومنظروها تركيزا
شديدا على أخطاء المراحل القديمة وفواجعها وفضحوها فضحا شديدا متفرغين
لذلك مطبلين مزمريين وكأن لا عمل آخر لهم غير ذلك .

وما دام الأمر كذلك فإنه لا يجب بحال من الأحوال تكرار الأخطاء القديمة
وإلا لحق بنا العار القديم الذى ألحقناه بالقيادات السابقة ، وإذا كان الخطأ هناك
قد تم دون قصد بسبب حداثة الثورة وطزاجة التجربة فإن الخطأ هنا يصبح
مقصودا ومقصودا جدا مهما حاولنا تبريره !!

إذا ما اتفقنا على أننا كنا مكتمين فى السابق ، وهوجم الزعيم الخالد على
ديكتاتوريته وتسلط نظامه علينا ، ومراقبة حركاتنا وسكناتنا طول الوقت حتى
أدى غياب صوتنا الحقيقى إلى الوقوع فى أخطاء مدمرة : انفراده بالقرار ،
شمولية نظامه ذى الحزب الواحد ، التطبيل الإعلامى له بالراديو والتلفزيون
والجريدة طوال اليوم والليل على حساب صوت الشعب الحقيقى ، فعلى
حكومات اليوم أن تنزع عنا تلك الكمامة القديمة لنصدق بالحق فى جو من
الصراحة والحرية .

ولأنها قررت نفس فكرة الحزب الواحد الذى يضم تحالف قوى الشعب
العامل وصرحت وسمحت بإنشاء بعض الأحزاب الأخرى ، فإنه يصبح من

الخطأ والخطر الشديدين تحجيم حرية وحركة هذه الأحزاب وتحويلها إلى كيانات هيكلية كاريكاتورية تلعب دورا هامشيا على المسرح السياسى للأمة .
هذا (خطأ) ديمقراطى ولا شك أنه يتم (بقصد) لكى يظل الحزب الحاكم حاكما ، والحزب النائم نائما !!

اللعبة الانتخابية بمحتواها وتداعياتها هى أيضا تشى بأن "من بره هالله هالله ومن جوه يعلم الله" . تسعى هى الأخرى لإزاحة الإرادة الجماعية لتحقيق إرادة البعض لتجعل من الحكم شموليا كما فى السابق وهذا يعنى تكرار (الخطأ) القديم عن "قصد" وكأننا لم نهاجم تلك الشمولية ولم نعانها . أو أننا هاجمناها حتى تستقر لنا الأمور فنتسلح بتراتها ونلعب لعبتها ونستفيد من خيراتها !!

لقد كبرنا جميعا . صرنا خبراء فى فن "الأخطاء المقصودة" . نفهمها ونعيها بوضوح -- صغيرنا وكبيرنا ، عالمنا وجاهلنا - لقد أصبحنا نتوقع هذه الأخطاء قبل وقوعها بزمان وأزمنة . صرنا على يقين من أن هؤلاء الذين يرتكبونها إنما يقصدون إلى ارتكابها ، فهم يحققون لهم الفوائد ، وتضخم الثروات والعوائد ، وتحرفنا عن الأهداف والمرامى ، وتقسمنا بين مسروق وحرامى ، وتعطى الإشارة الخضراء لأعدائنا المنتظرين فى العلن والخفاء كي يتلقفونا لقمة سائغة ثمنا لأخطاء حكماننا الكبار "المقصودة" .

كلنا فى الهم !!

مازالنا ترن فى أذنى أصداء تلك الجملة العجيبة التى أطلقها صديقى المستنير فى صعيد مصر ، تعليقا على ملحوظة أطلقها سعيدا حين رأيت أبنية المنطقة الصناعية تعلو مجاورة لقريتهم . قال : "قد يزعجك أن أقول أننا مديون للإرهاب بهذا الإنجاز الذى تأخر كثيرا" . انزعجت فعلا فأردف : "لولا ظهور بعض العناصر الإرهابية الذين خرجوا من بين ظهرائنا ، لما سمعت الدولة بنا أو باسم بلدتنا . سوف نتهمنى بالرجعية وربما بالغباء ولكنها الحقيقة . وإذا كانت "أبنود" قرينك تحلم بمصنع أو بمنطقة صناعية ، وبأن تفتح ذراعيها لتحتضن خطة للتنمية تنقلها من حال إلى حال ، فعليها بالإرهاب . لنُدفع بأبنين أو ثلاثة من أبنائها للانخراط فى جيوش الظلام حتى ترى النور!!" . وقال صديقى : "ليس لدى دولتكم خطة شاملة للتنمية وإنما هى تتبع سياسة الترويق التى أدمنتها ولا تعرف غيرها ولا تؤمن إلا بها" .

هذه دولة "الميركروروم" . حكومات العلاج الوقتى . إسكات النريف بحشو الجرح بنا أو ترابا وترك الجسم العليل يحل مشاكل التواءم مع علله .

إنها دولة الإصلاح بالقسط المريح . جربت الكتابة عن أحوال قرينك . هل تغيرت أبنود بفضل كتاباتك المتقدمة؟! أبدا . لو خرج من شباب أبنود إرهابيان أطلقا الرصاص على سائح أو حتى على عجلة قطار لاختلف الأمر تماما ، ولوجدت المحافظ ورؤسائه يفتحون خطوط الهاتف ويقلبون فى الأدراج العتيقة عن الأوراق التى أكلتها العتة والجردان ، بحثا عن ميادين للتنمية فى قرينك التى سوف تصبح سعيدة منذ تلك اللحظة!! .

هتلى ما سمعت وانصرفت بين مكذب ومصديق وقلت لنفسي : "أعروف أن صديقي نبيل ووطنى وشريف لكنّ مخه الطاقق أوحى إليه بما توصل إليه" .
كننى توقفت أمام التوقيت ، حيث حدث التطوير بعد عدة (هجمات) إرهابية وبعد ظهور عناصر ظلامية بالمنطقة . كان التوافق حقيقياً !!

اليوم قرأت أن السيد رئيس الوزراء : اكتشف أن "الكُشْح" التى كانت مسرحاً لقتال دام كحرب البسوس بين الأقباط والمسلمين منطقة متخلّفة تعتنق الأُميّة والقبليّة، وبعد البحث العميق عن جذور المسببات لتلك الفتنة انحصرت الأسباب فى غياب التنمية وتَشبُّح الجهل والفقر الذى أدى بالفقراء إلى نهب محتويات المتاجر وسرقة الممتلكات من الأغنياء . إن التخلّف الذى وحلت فيه الكُشْح كان الأرض الخصبة التى نبتت فيها النعرات القبلية والجهالات الدينية والتى رواها التطرف وحراس الظلام ليحدث الانشقاق الذى قد يندلع كالنار فى القش ليجبو تاركا مواقعهُ إلى مصر كلها !!.

هكذا اكتشف السيد رئيس الوزراء السبب - أخيرا - وأقام الاجتماعات المهمة لمناقشة الأمر الخطير والبحث عن الحلول التى وجدها أخيرا فى التنمية . إن ظهور الإرهاب فى الكشْح وجاراتها هو الذى حولها إلى منطقة محظوظة فقد نُبّهت دماءُ البشر حكومتنا السنيّة إلى أنه يوجد بشر فى الصعيد . يوجد تخلف . أن هذه المناطق بحاجة لنظرة وإلى تنمية . لذلك كوفئت الكشْح بأن تقرر تحويلها من قرية إلى مركز ، وتقرر إقامة الصناعات بها ومطاردة التخلّف إلى أقصى حد ممكن والقضاء على البطالة المتفشية فيها وفى جاراتها الثائرات !!

إنه مبدأ خطير !! تقليد مفرع وقيمة جديدة تنبّهنا إليها حكومتنا الرشيدة : "من أراد أن يطور منطقته فعليه أن يثبت أنها متخلّفة فعلا" ، ولن يثبت هذا التخلّف إلا بالدماء . ليس مهما أن تكون الدماء مسلمة أو قبطية ولكن يجب أن تكون مزعجة للدولة وأن تبلغ بها الدولة الأكبر والمنظمات المتربصة بدولتنا وشعبنا ووحدته .

ساعتها ستتزعج دولتنا انزعاجا شديدا . ستكتشف فجأة أننا مناطق متخلفة فتسعى إلى تطويرنا بقعة بقعة ، حسب بقع الدماء التي أريقَت ، وعلو صوت التخلف الذى يردى الأهل قتلى والأحاباب جثثا . أما أن نحلم بأن الدولة لديها خطة واضحة للتنمية والتطوير حتى ولو من أجل أن تبقى على وجودها وألا يتهدهدها تخلفنا فهذا مالا تفكر فيه !!!

لقد أصبحت دولتنا خبيرة فى كبس الجرح بأى شىء ناعم لإيقاف الدم . ليس تجنبنا لنزيف الجسد ، ولكن لأن الأمريكان والأوروبيين يزعجهم لون الدم وقد يجدونها ذريعة للتدخل فى شئوننا أو سببا لقطع ومنع المعونات عنا أو فى ممارسة الضغط على حكومتنا لتحكمنا بطريقة تختلف عن طريقته الحالية ، وأن تكف عن الإصلاح بالتقسيط لتصفنا فى معركة كبرى ، نسترد فيها حيوبتنا الفكرية واحترامنا الاجتماعى لنحقق الكرامة لأمتنا ونضعها فى صفوف الأمم الحية من جديد!!

إما التنمية الشاملة أو سوف نستيقظ على الفواجع كل يوم إذ أننا - كما نعلم - كلنا فى الهم كشح !!

القفا العريض !!

فى الأقصر ، اتجهت مع الأصدقاء لتقديم واجب العزاء فى ضحايا أو (شهداء) الطائرة المصرية المنكوبة التى سقطت بركابها المصريين والأجانب وبطاقمها قبالة سواحل ولاية ماساشوسيتس الأمريكية وبها ذلك العدد الهائل من البشر ، والذين فقدت منهم الأقصر - بمفردها - خمس ضحايا منها ثلاث من بيت واحد .

دلفنا إلى السرداقات الصامتة ، قليلة الضوء . جلسنا بين الوجوه التى جمدها الحزن والكارثة غير المتوقعة . كانت العيون جميعها تتوارى بما تعرفه خلف صمتها التاريخى !!

إنه الصعيد حين يرتدى قناع أجداده الفراغة لينفى النظرة التى تشى ويطمس التجاعيد الموحية وتتكسر عيناه - تماما - المعرفة الشاملة والعميقة بكل ما يدور من حوله !! هذا العارف بكل شئ يستطيع - فعلا - أن يقنعك بسذاجة منتحلة ، وهبل مستعار ، وجهل كاذب بالأمور لم يجربه يوما ، لكنه قادر على رسمه نأمة نأمة وتغضينة تتقاطع مع أخرى ، كى يقتنع أمثالك من الغرباء بأنه جاهل تماما بما يصنع الآخرون به !!

كان الآباء منهزمين . أثقلت كواهلهم الكارثة . مطرقين إلى الأرض كأنما انقطع الرباط الذى يمسك بالرأس فهوت ! الشيخ المقرئ ما فتئ يردد "وإنا إلى ربنا لمنقلبون" !

حين احتضنت الآباء فى نهاية العزاء وتلاقت العيون الباكية أفشست لى العيون معرفتها ووعيتها بما يدور !

إنها الحرب التي من جانب واحد . قتل الإبن هو جزء يسير من المعارك التي لم تتوقف يوما !!

من يقاتلنا بالإيدز والمخدر ويضرب السياحة ويسرب لنا الأطعمة المهلكة والأسمدة التي قتلت التربة المصرية وأورثتها كل أمراض الأرض ، أليس بقادر على أن يضع تحت كرسي الإبن ما يحوله إلى أشلاء؟!

لم يقل الرجل بلسانه شيئا ، فاللسان أعجز من أن ينطق ، بل أعجز من أن يتحمل الصمت ، لكن العيون تشي بكل الوعي . في ومضة أسرع من نظرة !

لم يزد دور الإعلام في هذه الكارثة على قراءة القرآن الكريم فأننا أمام التليفزيون كأنى في ذلك المعزى ، وذلك المقرئ ذو الجلباب القديم يتم قراءته . انقلب الأمر بمجمله إلى (جنازة) وأغنيات دينية وأجواء من الموت دون أن يخرج علينا محلل واحد أو مفكر واحد أو سياسى واحد يرد للناس هدوءهم ويصل معهم إلى إمكانية أن يكون ما حدث قد تم بفعل فاعل أو بفعل العوامل الطبيعية أو أن الطائفة متهاكمة أو .. أو ..

فقط ذلك السرداق المنصوب ليل نهار ، وتحمل الرب مسئولية الأمر برمته فهو الذى يبده كل شيء ونحن إليه منقلبون عاجلا أو آجلا ، كما حدث مع هؤلاء "المهمين" الذين لا يستفيد من قتلهم على هذا النحو سوى العدو !!

لم تكف حرب العدو ضدنا يوما . لم يكف أهل السلام عن تغمية وتعمية عيوننا عنه يوما ، كأننا نعمل لحسابه ، لحساب العدو كلنا !!

نحن إما لاهون صاخبون . راقصون . ضاحكون . تافهون ، يزودنا إعلامنا بمادة لا تتعد لكل ذلك ، وإما جالسون فى سرداق عزاء ، آسفون منكسرون نمارس الحزن المفتعل !!

لو كانت هذه الطائفة إسرائيلية ، تخيلوا أنتم ماذا كان يمكن أن يحدث وماذا يكون؟ هل كانت تنام قطعان الذئاب الإسرائيلية فى أية بقعة على أرض العالم؟ هل كانت تكف عن العواء أو تصمت طبول الاتهام عن القرع "والرزع" فى

كل أجهزة الإعلام العالمية من صحف وطقوس دفن وهتافات معادية لكل أهل الأرض أجمعين؟

أما نحن فلا نعثر حتى على حطام الطائرة أو أشلاء الموتى - هذا قدرنا - منحنا الله قفا عريضا كأنه خلق للصفع يصفعه القريب ويصفعه الغريب .

أصبح الإنسان المصرى بلا ثمن . يباع مجانا أو بالملاليم كالإنتاج المتوافر . غيبوا وعيه وأعموا بصره وحشوا عقله بأتفه تغاهاتهم وكانهم ينفذون مخططا فرض عليهم وبرامج لمسح الذاكرة جاءت من الخارج ومعها فعل الأمر . يتباكون على الانتماء . هؤلاء الذين قتلوه وغيبوه وقطعوا بأصابعهم المحترفة الخيوط التى تربط الفرد بوطنه ، وجلسوا ينعمون هذا . الانتماء الذى حددوه فى أذهانهم على أنه الطاعة العمياء للدولة : لليمين در للشمال در !!

كأننا نعمل فى خدمة العدو . نساعد على قتل الأرض والأبناء . نسمح له الطعام والفكر . نثبت له أننا على طريق السلم الوهمى سائرون صاغرون . أما هو فإنه يتقوى يوميا بضعفنا اليومى . لا يضعنا فى اعتباره من قريب أو بعيد . يقيم المستوطنات على أشلائنا . يضئ قناديله بدماء شهدائنا . يساعد الجميع ويقف ضدنا الجميع . فهل نحن قادرون على مواجهة ظلمات الداخل حتى نواجه ظلمات العدو الخارجى ومؤمراته التى لا تكف ؟!

يا أهل الضحايا أو الشهداء : لم يغيب الوطن تماما عن الوعى . يدرك أن أبناءكم سقطوا فى (حرب) خسيصة تأمر الجميع فيها على هزيمتهم فى (سلام) ، استكمالا لنقش تاريخهم على قفانا العريض !

أجباء العدو

راحت رجال العز والهيبة

وجات رجال لا تستحي العيبة

"بكائية صعيدية"

قليل من همها يذهب غمها . قليل من المنغصات ليصبح لها طعم . ملح
للطعام حتى يؤكل . ولا أحد يملك ضحكة مكتملة في هذه الحياة والحزن علينا
حق !!!

مؤتمر للتطبيع في قلب القاهرة المحروسة يعتقد بلهاؤه أن الشعب المصري
عبيط أو "بسيط" كما يحبون أن يطلقوا على عبطه . يعتقدون أنه شعب يكتفى
باللحمة وبحمد الله لأنهم يرونه يفعلها كثيرا ، لذلك هم واثقون بقدراتهم على
هزيمته بل وبيعه وتقديمه لأعدائه لقمة سائغة .

رأوه يهزم في ١٩٦٧ . لم يروا أن الذى هزم هو القيادة السياسية
والعسكرية وأن الشعب المصري كان منتصرا في أحلك السنوات التي تلت .

لم تهزم إسرائيل الشعب المصري ولم تستطع ، فلو كان هزم لسلم سلاحه
للعو ولدفع الدولة للبيع والمساومة ولما أصر على الانتظار والانتصار فى
عام ١٩٧٣ . ذلك النصر الذى اعتقدت الدولة أنها هى التى حققته فسعت إلى
بيعه للعو بيع الإنتاج المتوافر دون استشارة ، واستدارت تجمع الثروات

وتغسل المال الحرام وتهذ البنيان الرهيب الذى بنى من عظامنا بعرقنا ، وعلد الأثرىاء من الخارج لتسحق جراراتهم المقابر الجماعية لشهادتنا التعساء الذين ابتلعتهم رمال سيناء .

هكذا أثرى قوم وأفقر قوم .

تحولت دماء الشهداء إلى ملايين وبلايين فارتفعت أعمدة المدن الجديدة على بقايا جثثهم ، والقرى السياحية على أشلاء تواربهم . تلك المدن والقرى التى كلما اتسعت ازدادت العشوائيات اكتظاظا وضغطا على ضلوع الفقراء .

تحول النصر الذى انتزعه إلى ذنب ارتكبه !!.

إحساس كالهزيمة تسرب رويدا رويدا إلى أرواحنا . كلما عبرنا حاجزا قامت حواجز . كلما تغاضينا عن شاهد قبر امتدت حقول من الشواهد .

حوصرنا بأجواء "البيزنس" الملونة وقوانين التجارة والحسابات الخاصة والتعاملات البنكية والمراسلات الدولية وتلك القشرة العصرية التى تغلف عالما كاملا من التخلف وانحطاط الأحوال .

حوصرنا باللصوص ، وسراق البنوك ، والفساد الذى يزكم الأنوف ويكتم الأنفاس ويكاد يزهق الأرواح . كأنه كان انتحارا جماعيا إراديا لشهداء مصر كى يعطوا الفرصة للهاربين فى الخارج ويخلوا الساحة للأفاقين "أحباء العدو" للتأمر على الوطن وبيعه لمن يريد الشراء !!!.

كان الوطن ينزلق بإرادته ليقع - بتدبير تلقائى - فى يد العدو كثمرة ناضجة تختال بألوانها الجديدة وتستعرض مفاتها وعريها أمام عين الزبون !!!.

رأى بعض المثقفين ما تفعل الفئات الأخرى تحت أعين ووصاية الدولة وأدركوا أن المستقبل للعملاء !!!.

تصدينا لهم ، ومازلنا ، ودائما كنا قادرين على ردعهم وإخراستهم وإبناستهم
ثوب الخزى . لكن ما يحاولون فعله الآن تعدى كل حدود البجاجة والصفاقة .

قيل إن الدولة تقف إلى جانبهم هذه المرة ، وإذا كان هذا قد حدث أو يمكن
أن يحدث ، فسوف يساعدنا ويسهل علينا ويحل عن لساننا عقدة الوفاق
الوطنى ، ويغلق فى قلوبنا أبواب التآلف والتحالف ، ويفتح باب العداوة بيننا
وبين الدولة لنتعامل معها كما نتعامل مع العدو .

صديق عدوى .. عدوى !!

سواء أكان هذا العدو أفراداً أو الدولة أو الجن الأزرق فإننا سوف نقاتله
ونقاومه ونحمل له الحقد كأنه صهيونى ، فالدم فى لبنان مازال ليّناً ،
المؤامرات تحيق بالعالم العربى فى كل شبر من مساحاته . من أراد البيع فإنه
لا يملك إلا أن يتصرف فى عرض أمه أو أخته ، أما أعراض الأمة العربية
فلها حراسها أيها الخونة والأيام قادمة وسوف نرى !!!

راحت رجال العز والهيبة

وجات رجال ما تستحى العيبة .

كذا وكذا ..!!

رغم تنبؤى بعدم قدرة السلطة لدينا على تجديد نفسها والخروج من جلودها القديم، وعجز الدولة عن هدم الأعمدة القوية التى تستند إليها هذه السلطة ، الأعمدة التى تعاضمت قوتها حتى اتخذت حالة من الثبات بحيث يصعب تحريكها فى زمن ليس ثوريا بحال من الأحوال . زمن يؤمن بمسايسة القارب حتى يصل إلى جزء من البر حتى لو لم يكن هو الجزء المقصود للرسو .

إن تغييرا حقيقيا لا يمكن أن يحدث فى بلادنا ، بالذات فى المناطق - من السلطة - التى تمنى الشعب المصرى أن تزيحها يد التغيير بعد أن سئم الوجوه التى عاشته أكثر من أسرته وبعد أن رفع شعاره الخالد عن "الجار السوء" .

رغم وضوح رؤيتى وثباتها ومعرفتى الجيدة بهذا النوع من "السلطة" الذى يقوم على المجاملات الشعبية والارتجال الاجتماعى والتطفيش السياسى المتبادل بين الحكام والمحكومين مع الظواهر التى تنتفخ وتتورم على الجسد الهزيل والتى تحتاج إلى أطباء حقيقيين ومباضع حادة للتطهير الحقيقى .

رغم كل ذلك فإن الإحباط أصابنى كما أصاب كل أبناء الشعب المصرى تماما. أحاطت بى قبضة اليأس الغامض الذى يتسرب من الأعماق كال دخان ليعصد يصعد يصعد حتى تضيق الأنفاس ويغشى العيون فيفقد صفاء الرؤية ويزيد من تعاسة المنظر !!

كنت خارج الحدود المصرية ، بعيدا عن نبض الشارع المصرى ، كنت فى فرنسا للعلاج حين بلغتنى أنباء التغيير الذى كنت أراه جيدا قبل سفرى فانقبض القلب وقلت لنفسى ما قلت .

لم يكن هناك فى الغربية من أحداثه أو أحاوره فأعطانى هذا فسحة من الحرية ومن الديمقراطية ووقتا للتحدث مع نفسى دون خوف !!
قلت لها عن الوزراء السابقين "كذا" !! ولم أخف .

قلت لها عن الوزراء الحاليين "كذا" !! بكل شجاعة .

قلت إن الأوضاع كانت "كذا" فصارت كذا وهى فى طريقها لأن تصبح كذا ، ولا يستقيم الكذا مع الكذا فى حالة كذا ، وإنه لابد من كذا إذا كنا نريد كذا .

قالت لى نفسى وهى تحاورنى : ولكنك تعرف أنك حين تصبح كذا لا تستطيع أن تفعل إلا كذا وإلا وقعت فى كذا وكذا حيث لن ينفعك كذا وكذا .

قلت : ولكننا لو كنا افتتحنا كذا ، وأقمنا كذا ، وتابعنا كذا ، لكان لدينا الآن كذا وكذا ، ولما ضاقت الحلقة هكذا !!

شوارع باريس رائعة . بلد الفن والنور والجمال فعلا . بلد الديمقراطية حقا . هؤلاء هم الطلاب ، طلاب الجامعات والمدارس ، وقد هبوا فى مظاهرات جامحة حافلة ضد وزير التعليم ضد تخفيض ميزانية التعليم .

قلت لنفسى : هل يعرف طالب مصرى شيئا عن ميزانية التعليم فى مصر ؟
تلد عربات الأمن المركزى فى نواصى الشوارع الخفية ، وتتأخر مواعيد أصدقائك بسبب المظاهرات وأنت فاغر فاك تتفرج كالأبله !!

قلت : لو كنا منذ أزمنة طويلة فعلنا كذا لكان عندنا الآن كذا ، لكن التغيير يمر فى حياتنا كما تمر السحابة على الرءوس . كالظواهر الطبيعية من برد ورعد وشرد . لا يد لنا فيها ولا تؤثر فى اختيارها أو منعها . كذلك هذا التغيير ، لا يد لنا فيه ولا يشبهنا من قريب أو من بعيد . لا نستطيع أن نمنع من خرج ولا أن نقف فى وجه من دخل ، لا نستطيع أن نشير إلى أحدهم لنقول انه كذا . فعل كذا وكذا وكذا . لذا فهو لا يصلح لأن يتولى مهام كذا ، لأنه سوف ينتهى إلى كذا ، وسوف يقودنا إلى كذا ، ليحدث لنا كذا وكذا وكذا !!

إنه قدرنا . فرطنا فى حقوقنا . بعنا دورنا "طليعة و جماهير" . بل أهديناها مجاناً فى عبثية مزرية ، وجاء وقت الحصاد .

قلت لمن قال لى : نعم أنا راض بهذا التغيير الشكلى . ذلك لأننا لا نستحق غيره . ألقينا بكل المهام على كاهل الدولة لأنها أمانة . تخلينا عن كل شىء . نمنا فى العسل بعمق . علا شخيرنا حتى تأكد منه الجميع .

فيجب ألا نحتج أو نعلن أن هذا التغيير لا يروقنا لأننا سنبتلعه إما رضاء وإما عنوة . فالأفضل أن نتقبله راضيين بدلا من أن نطفحه غصبا ، لأننا إذا ما أسفرونا عن كذا فإننا سوف نقابل بكذا .. حماكم الله شر كذا وكذا وكذا !!

النسخة المعدلة !!

هذا الإبتهاج العارم بمجىء إيهود باراك إلى السلطة فى النظام العنصرى الغادر الذى نشأ على أنقاض سكان الأرض الأصليين فاحتل البلاد وشرّد أهلنا فى كل الأرجاء لهو شىء لافت للنظر ويستحق أن نقف أمامه فى لحظات للتأمل . هذا النقاول المصطنع الذى تلاقيه كلماته ذات الأضلاع والتى ليس لها معنى محدد ، والتى لا تختلف فى الحقيقة من قريب أو بعيد عن الأقوال الإسرائيلية التقليدية وتصريحات زعمائها منذ وجدوا ..

ليس ثمة من تغيير اللهم إلا فى رجوع اللهجة القديمة التى كانت الأسلوب الثابت قبل أن يأتى ذلك الأرعن المسمى بـ "نتنياهو" : حنين للطهى على النار الهادئة .

أقلب فى كلمات الرجل ، أحاول سبر غورها فلا أجد أنها تؤدى بنا إلى كنز مدفون أو إلى كوة ضوء بعيد فى كهف السياسة الإسرائيلية المظلم !.

إنه ضعفنا يصور لنا الأشياء على غير حقيقتها فنخلق من أعدائنا نسخا معذلة وإلا اضطررنا للنضال كفانا الله شره .

إنه ضعفنا الذى يعرفه عنا عدونا أكثر مما نعرفه عن أنفسنا فيداعبنا ويلاعبنا لنستلقى فى ميادين العالم أمام كل سكان الأرض نؤدى "نوم العازب" و"عجين الفلاحة" ، ولكن فى احترام وبوقار نحسد عليه !

كنا - وآه من كنا هذه - فأصبحنا نتسول كلمات العفو عنا من شفاه عدونا
التي تقطر سماً . ننتظر منه - ونحن ننظر إليه في توسل - أن يتبرع لنا
بالمستوطنات التي لا شك تعنى لديه أكثر من تكلفتها ومن جمال أسطحها
الحمراء . أن يعطينا سلاسل مفاتيح كل شارع وكل حي وكل ميدان . يعطينا
الحدائق الخضراء ويهبنا الشوارع الواسعة النظيفة المسفلتة وأعمدة الإضاءة
وإشارات المرور .

يلم سكانها أشياءهم ويرحلون صاغرين يبحثون عن سكن آخر في
المستوطنات القديمة التي ربما تخلى لنا عنها غذا لتؤول إلينا بدورها بعد أن
نتسلم المستوطنات الجديدة واحدة بعد واحدة !

ننتظر أن يعلن "باراك المبروك" - وليس بكثير على الله أن يهديه - التخلي
عن القدس دون نزال أو عراق أو نضال . يتنازل عن جعلها عاصمة أبدية
لإسرائيل ذات الفم الواسع والأنياب المخيفة . ننتظر أن يعلن أنها مدينة
إسلامية أو على الأقل مدينة للأديان الثلاثة . نتلهف على بيانه المنتظر
بمغادرة الجنوب اللبناني بعد ساعات قلائل والتخلي عن الغارات الوحشية ليس
عن الجنوب فحسب بل عن لبنان أجمع معتذرا عما سببته غارات الأسبوع
الماضى من قتل للبشر وتقويض للبنية التحتية للبلاد التي لم تُطَبَّب جراح
حربها الأهلية بعد . ننتظر منه أن يعلن بعد هنيهة عن لم عزاله والرحيل من
أرجاء هضبة الجولان ، وقد عشش هناك وتزوج وأنجب وزرع وقلع وغير
أسماء الشوارع والأماكن واستبدل قوانين "العدو" بقوانينه وصارت الجولان
جزءا حميما من أرض العدو . غادرت ضمائرنا لتسكن ضميره. لم تعد هي
الجولان القديمة . لم يعد منها على قيد الحياة غير إسمها .

يقول الرجل كلاما واضحا فنسمعه بطريقة مختلفة لتؤكد من أن المتشودين
عاندون إلى جنتهم المفقودة "فلسطين" ، وأن دولة فلسطينية خالصة سوف تنتظم
معظم الأرض التي مازالت وستظل تحت الاحتلال ، وسوف يرفرف عليها
العلم الفلسطيني الخفاق ويحكمها أهل الوطنية والعلم والعدل ونظافة اليد من
أبنائها !

نتنظر من الرجل المبروك أن يعتذر لمصر عن شهدائها . بل ربما قرر أن
يعوّض أهلنا عن فقدهم أبناءهم . هؤلاء الذين راحوا ضحية الاستهانة بهذا
العدو الذي يعرف جيدا طبيعة الأرض وطبيعة البشر في بلادنا وقادر على
التهامنا في ساعات - أرضا وبشرا - !

أما الرجل نفسه فلا شك أن العجب يذهب به كل مذهب . فهو لم يقل شيئا
يدفعنا إلى حلم اليقظة الرائع هذا ، فكلماته لا ترسو على بر ، ولا تستند إلى
التزام . يمدون إليه الأيدي بالميكروفونات ذائبات صباية :
"قل يا رجل . ما يصحش . أى كلمة .

نريد أن نطمئن شعوبنا ثم مارس أنت ما تريد . دعنا نقول : إنك مختلف ،
إنك لست إسرائيليا تماما ، وأن بك جزءا مستعدا أن يتخلى عن المبادئ
والمكاسب والأهداف الإسرائيلية ويحول بين أنياب الصهيونية والكثف
العربي " .

الرجل لديه ابتسامة خشبية خادعة تشبه إلى حد بعيد ابتسامة ممثلنا
الكوميدي "يونس شلبي" . صحيح أنه لا يتهته مثله . صحيح أنه مصحح
و"بئجمع" - بينما يونس شلبي ما يبيجمعش - إلا أنه يشبهه في المظهر الخارجي
وكان هذا مقصودا!

واعتذر شديدا لأخى وصديقى الوطنى الجميل يونس شلبى .

فى الإسكندرية قال بطل المذابح المعروفة ، قاتل الفلسطينيين واللبنانيين كلاما يحمل ألف معنى ونقول نحن : لنعطه فرصة ، والفرصة سوف ينالها شئنا أم أبينا، وبعد الفرصة فرصة وفرصة وفرصة .

القضايا تسقط بالتقادم وعواطفنا يفسدها الزمن ويكسوها الصدا ، والإعلام الغربى والعربى يعبث بالعقول ويبدد المواقف ويسوقنا إلى الترهل لينلقفنا العدو لقمة سائغة ، وليتبدل علينا رئيس وزراء إسرائيلى وراءه آخر ثم آخر ، بينما حكوماتنا ثابتة فى مواقعها كتمائيل مصر القديمة لا تغييها أزمنة ، ولا تغيرها أحداث!

الرجل الذى لم يغير قولا لا قبل الانتخابات ولا بعدها . لا فى إسرائيل "بلاده" ولا فى بلاد أعدائه "بلادنا" . كان غامضا كالوضوح ، وواضحا كالغموض . لم يجبره أحد على قول كلمة لا يريد قولها ولا استجاب للتوسلات الرخيصة للمذيعات اللاتى لقنهن الإعلام أسئلتهن الرقيقة الموجهة للرجل المبروك !

هكذا يوما يزداد يقيننا بأن الجنة المفقودة سوف تظل مفقودة ، وأن السبيل للعثور عليها ليس المؤتمرات الصحفية !

الحبس الانفرادى (١) !!

هكذا وفق التنسيق المحكم بين كل أجهزة الشرّ في الدنيا ليتم القبض على "عبد أوجلان" زعيم حزب العمل الكردستاني واختطافه من كينيا ونقله إلى إحدى جزر تركيا ليتم التحقيق معه تحت ظروف لا نراها وإن كانت الصور قد نقلت إلينا بعضاً من ملامح تلك الظروف وسوءاتها .

رأيناه معصوب العينين ينقله رجال مقنّعون من أماكن إلى أماكن يتبادلون التهنية فرحين بالفوز العظيم بالغنيمة القيمة . لم نتبين جنسياتهم ولم نعوّف إن كانوا أتراكا أو يهودا أو أمريكيان أو يونانيين أو كينيين أو من كل هؤلاء الذين أحاطوه بالمؤامرة حتى انغلق عليه باب القفص !!

جريمة أوجلان - كما نعرف - أنه ينتمى إلى أمة ليست لها دولة وأنه حلم لها بتلك الدولة ورسمها في خياله ثم صورها لصحبه وأحابيه ومن بعد لأتباعه وأشياعه وعاش مطاردة مختبئاً منفيًا يحاول إدارة ماكينة هذا الحلم لتحويله إلى حقيقة !!

انتقلت صور الرجل عبر الأقمار الصناعية معصوب العينين تارة ، سافر الوجه تارة ، يقف أمام الكاميرا التي تلتقط صورة السجين من الجوانب ثم الوجه ، ثم وهو ينظر لسجانيه متحيراً أو متعجباً ومن خلفه الأعلام التركية ، ثم وهو يلقي بجملة غامضة مثل (لو أعطتنا تركيا الفرصة لأثبتنا أننا نحبها)

وهى جملة تحتل عدة تفسيرات . ثم جاءتنا الأخبار بأن الرجل يعترف هناك بأشياء ويبلغ عن مساعدته!!

لست هنا فى مجال تقييم سلوك الرجل أو الحكم عليه فمزال هناك وقت طويل لاكتشاف ذلك والتأكد من صلابة الرجل أو ضعفه ، خاصة أن الأقوال تصلنا على لسان أعدائه ولا نتلقاها عنه مباشرة . لكن قضية اختطاف عبد الله أوجلان تطرح بحدة قضية الحبس الانفرادى وتذكر به كل من مارسه - أو مارس عليه - من قبل وتدعو إلى تأمله من جديد .

الهدف من السجن هو عقاب المحبوس بعزله عن الحياة . أما الحبس الانفرادى بكل الطقوس التى يمر بها المحبوس حتى يلقى به فى زنزانتة ، فإن الغرض منه هو تحقيق انتصار أحد الطرفين - الحابس أو المحبوس - كل على الآخر - تحديد حاد لحقيقة العلاقة بينهما ، وكشفاً لجوهر الصراع بين النقيضين وصلابة كل منهما فى التمسك بمبادئه وإصراره على تحقيق الغاية ، ودرجة مصداقية كل منهما.

الحابس يمرر المحبوس عبر أنابيب اختبار فى سلسلة من طقوس مجربة فى الإذلال ، وتجريد المحبوس من كل أسباب قوته ، وهى طقوس استقر على جدواها وفعاليتها . هى خلاصة فكر كل الحاسبين فى الدنيا وعلى مدى تاريخى طويل حتى صارت تراثاً أصيلاً مجرباً مستقراً يدرس فى الأكاديميات التى يتخرج فيها قادة السجانين فى كافة أنحاء مناطق السجون العالمية . ليست من اختراع فرد ولكنها خبرة غالبية السجانين العالميين . عباقرة ومفكرون حَبَرُوا الصفحات والصفحات ضؤل شأنهم أو كبر حتى صارت للحابس تلك الخبرة العملية التى تقوده من أقصر الطرق إلى تحقيق النصر السريع على المحبوس واستخلاص الأقوال من حنكه واختراق حواجز صلابته لدفعه نحو

التهاوى ثم الاعتراف . ولربما استطاع الحابس أن يقود رهينته من الإنكار إلى استنكار فكره ذاته والتبرؤ من أيديولوجيته التى عاش لها ، وخلقه السياسى الذى ربط بينه وبين الجماهير التى يقودها والتى عاهدتها وحالفها على نوع معين من الفكر والسلوك السياسيين .

كل الزنازين ضيقة ، وكل السجانين يحملون نفس الملامح . كل الحابسين رضعوا من نفس الثدي . لا تختلف الممارسة واللعبة المشتركة بين الحابس والمحبوس من زنزانه مصرية إلى إسرائيلية إلى أية زنزانه فى أى مكان على وجه الأرض!!

الحبس الانفرادى هو الرقصة الأخيرة فى سلسلة الطقوس المتتابعة التى تستهدف فى النهاية انهيار المحبوس وسقوطه كالتفاحة المعطوبة فى حجر الحابس الغبى .

المحبوس أذكى - عادة - من الحابس لأنه لا يعتمد على حفظ نصوص أوردها من سبقوه وأعدت له سلفا . لكن لا تكون أمام المحبوس ثمة فرصة ولو صغيرة لممارسة ذكائه وإنما تنتاب عليه طقوس إذلال متواصلة وعمليات متتابعة من تقطيع الأوصال والصلات الإنسانية حيث تسيل الدماء فى علنية يراها المحبوس بعينه . هناك من يدرك أنها لعبة جهنمية مكدسة بالخبرة السابقة فيصمد يساعده وعيه الذى يهبه طاقات فريدة من الاحتمال ليكتشف الثغرات الساذجة فى لعبة الحابس فيكتم سخريته ويجاريه فى إتمام اللعبة بقصد غير القصد وهدف يناقض الهدف . وهناك من يصدق ذكاء الحابس ويخيل له أنه يعرف عنه كل صغيرة وكبيرة فينهار معترفا بجرائمه - فضائله - وشيئا فشيئا يرى المحبوس ماضيه النبيل بعيون الحابس ، تتوحد الرؤى وتتبادل الايديولوجيات مواقعها وينهار الأبطال .

إن عصب العنينين هو أول ممارسات هذه الطقوس الإذلالية . عصب العنينين والانتقال من مكان إلى مكان تفعل خلاله الأصوات والأقوال المقصودة والحركة المدبرة تدبيراً محكماً بين صعود وهبوط وعبر وسائل انتقال مختلفة تنتهك عقل المحبوس وتجهد حواسه المستنفرة في محاولة قراءة ما لا يستطيع رؤيته بالعين ، وحين يكاد يصل إلى غايته توقظه لكزة أو صفعة أو دفعة لتقطع ما بينه وبين اجتهداه حتى يضطر في النهاية إلى التسليم بهزيمته ويسقط منهكا يائسا وهو المطلوب !!!

أساس اللعبة هو ممارسة الحابس إذلال المحبوس . نقله من وضع إلى وضع . إسقاطه من كرسي المناضل وسحقه ليتحول إلى شخص ضعيف وحيد لا نصير ولا معين . إشعاره بأنه بعيد بعيد وأنه ضئيل وأنه كان يعيث من قبل ، وأن أحدا لا يذكره . وبينما يرقد هو هنا على أسفلت الحبس الانفرادي فإن رفاقه ومعارفه بل والبشر أجمعين يستمتعون بحياتهم . نسيه الجميع . تخلى عنه الجميع ليسقط مهزوما منهارا وربما سلم للعدو بهزيمته . وربما فرط في كل شيء وسلم لحابسه كل ما يريد .

الحبس الانفرادى (٢) !!

فى أكتوبر ١٩٦٦ اعتقلت مع مجموعة من خيرة مبدعى ومفكرى وصحفى جيلنا . خارج السجن كان اسمى كالطبل . داخل سجن القلعة الرهيب عوملت كحشرة قذرة يأنف الضباط من لمسها بعيونهم . يحرضون المخبرين ليذيقونا طعماً جديداً للإهانة ينسبك كل احترام أدبى أو اجتماعى ويشعرك أنك بمفردك وأنك وقعت فى الفخ الذى لن يطاله أحد لتخليصك .

تُسلب كل أشيائك ويلقى بك فى زنزانة ضيقة معدومة الإضاءة كى لا ترى جيوش البق الزاحفة من البطاكين القديمة التى تلقى فى وجهك . يأخذون الاسم ويعطونك رقما هو رقم الزنزانة . كان رقمى (٢١) !! "اسكت يا واحد وعشرين" "أخرس يا كلب يا واحد وعشرين" . تمر بتجارب دنيئة لكنها رهيبه لأنها تقوم على المباغلة والمفارقة فتغمى وتصفع على ففأك ويصحبك المخبر إلى دورة المياه - خوف انتحارك - لإيهامك بأنك فى وضع خطير قد تلجأ فيه إلى الانتحار ليضعك فى لحظة توتر متصلة ويؤكد انزعاليك وقطع صلتك بالعالم وأنك لا تساوى قلامة ظفر وأن أهل الخارج الذين تأمل فى مساعدتهم قد انصرفوا عنك إلى أحوالهم وأنهم نسبك تماماً وأنك الآن تافه ووحيد وحيد !!

إنها لعبة موروثه وأبجدية متناقلة خلفا عن سلف فى علم "الحبس الانفرادى" لا راديو ، لا كتاب ، لا جريدة ، لا نافذة تطل على حياة . يوهمونك أن الصلة بينك وبينها قد انتهت !!

فى ميعاد خروج الصغار من مدارسهم ظهرا كانت أذنى تنتظر يوميا انطلاق أطفال مدارس القلعة الذين كانت أصواتهم تصلنى أخفت من ظلى ، أو كذكرى ساقطة بين الوهم والحقيقة . يتهافتون وهم يزفون رفيقا لهم : "العبيط أهه ، العبيط أهه" .

كانوا على أسفلت الشارع الغائر فى المسافات السفلية ، وكنت معلقا فى زنزانة فى أعلى "قلعة صلاح الدين" . زنزانة استقبلت قبلى بشرا من مختلف الأجناس والاتجاهات الفكرية . من يسجنك فيها اليوم قد يسجن فيها غدا . لكنى كنت أبيت أملا وانتظارا لذلك الصوت الباهت الذى يصلنى بالحياة ، بالطفولة ، بالشارع المصرى ، بالوطن ، حتى وأنا مهان ، مشنوم أو مضروب مغلوب . كنت انتظر هذا الزاد الوهم ليهبنى القوة والإصرار على الاستمرار . شنيع ذلك "الحبس الانفرادى" وشنيع جدا ذلك الذى فكر فيه . هو زمن بلا زمن ، ومكان بلا مكان ، وحياة بلا حياة .

بقليل من عدم اليقين يمكن أن تفقد كيانك وموقعك وأن تنفطر - فكرا وعقلا ومشاعر - كسبحة انقطع خيطها . أن تتحول إلى ذرات لن توهب التماسك ، ولن تستطيع أن تمنح نفسك الثقة إذا لم تكن مسلحا بها قبل قدومك إلى هذه الزنزانة البشعة وبين تلك الذئاب التى ترقص من حول جسدك كل بطريقته ولكن فى نسق عام متفق عليه . إن تصديقهم للحظة واحدة كفيل بتمزيقك وتحويلك إلى ألف شخص ، ألف مهزوم !!

لم أكن أعلم أن الدنيا مقلوبة فى الخارج احتجاجا على اعتقالنا ، بل إن سجانى يوهمنى يوميا بأن الدنيا استراحت من وجهى النكد وصوتى الشؤم .

هذا ما أفكر به وأنا أرى مناظر الإذلال والتغمية والمحاصرة والإبعاد والتصوير وكاميرات الفيديو الشامتة فى البطل "عبد الله أوجلان" زعيم حزب العمال الكردى .

هل يعرف شيئا عن القيامة القائمة فى أوروبا من أجله ؟ هل يعرف أن شبانا وشابات أحرقوا أنفسهم فى ميادين الدنيا احتجاجا على طريقة الاختطاف وإعلانا للعالم أجمع على مواصلة النضال؟ هل يعلم أن اعتقاله أصبح لهيب الحرية فى صدور جنوده فرفعوا اللافتات واخترقوا شوارع عواصم أوروبا تحت المطر وتحركات جنود تلك الأقطار يعلنون من شأن زعيمهم المعتقل والملقى به فى "الحبس الانفرادى" وأن صورته زحمت شوارع تلك العواصم لتجعل من وجهه الجامد وجها شاعريا رقيقا تفوح منه رائحة الحياة والحرية والغد؟

هل يعرف "أوجلان" ما يحدث من أجله خارج سجنه ؟ أم أنه قد يصدق أقاويل المحققين ورجال الشرطة الذين نقلوه إلى جزيرة بعيدة بعيدة يمارسون معه كل حيلهم القذرة الموروثة وخبرتهم الفولكلورية عن الحبس الانفرادى ؟

هل يصمد أوجلان ؟ هل ينظر فى مرآة ضميره الصافية فىرى شعبه محتشدا متظاهرا يزأر باسمه فيوقظ ضمير الدنيا الميت ؟ وهل يصل إليه صوت أطفال شعبه من أسفل متسلقا جدار سجنه مؤنسا وحشته وواصل ما انقطع بينه وبين أهله فينطق الكلمة بوقار وثقة وحكمة ؟

هل سينتصر عبد الله أوجلان ؟

أم سوف ينتصر الحبس الانفرادى ؟

تغيير العالم !!

تكلمنا كثيرا عن تغيير العالم اعتقادا منا بأننا آمنة به . برقة أحيانا وبخشونة أحيانا . بمداهنة مرة ويعنف مرة . إنقسمنا إلى صفوف ، إلى شيع ونحل . أكوام وفرق . لم نحدد بالضبط مواضع الخلاف بيننا لكننا تشبثنا بخلافاتنا بقوة . مزقنا ثياب بعضنا البعض . ذهب معظمنا إلى السجون ثم عادوا جرحى وشبه مهزومين أو تصنعوا المرح والخفة وعدم قدرة الطعنات على النيل الحقيقي من الجسد والهمة.

كنا مغرمين بالإدانة . بإطلاق الأحكام القاسية بقوة وقسوة لا حدود لها . كنا نقتل الآخرين - الذين هم رفاقنا - دون أن تهتز المشاعر أو يقف شعر الرأس . الآخرون الذين هم رواد وقادة صفوف وصناع معرفة وحاملو مشاعر وحماة لنا أولا وأخيرا ، كنا نقتلهم بقسوة ونحن ندخن بشراسة وتعلو أصواتنا حول زجاجات الكحول الرخيصة . نقول كلاما لم نكن متأكدين من مصداقيته أبدا أبدا ، ومع ذلك كنا صادقين جدا ونحن نكذب وكنا نعلق السكاكين التي يجرى على حدودها دم الرفاق الذين اغتلتنا !!

كنا صغارا حين جننا من قرانا ومدننا الكنيبة الفقيرة الصغيرة ومن واقعنا المدقع نتهجى المعرفة والوعى ونحاول التلصص على خرائط التنظيمات وتكويكات الرفاق السرية . مع ذلك فوجئنا بنا بعد أيام قليلة نلقى بالأحكام الباترة النهائية فى قسوة لا يتمتع بها الحكام الظالمون ، وفى يقين لا يملكه

العارفون الواصلون الذين ولجوا من أبواب المعرفة وتركوا أيديهم تكتوى بنار المعرفة المقدسة .

تكلمنا كثيرا عن تغيير العالم . أرسلنا بأنظارنا تخترق حجب المستقبل كالسهام التي تعرف أهدافها جيدا ، وحين ارتدت الأنظار كان العالم قد تغير فعلا ، ولكن بيد أعدائنا !!

لم يعد الواقع هو نفس الواقع الذى كنا نراه ، والذى تشاجرنا كثيرا حوله ، ودخلنا المعارك بالصدق والكذب وشوه بعضنا البعض الآخر من أجل تغييره . لم يعد نفس الواقع الذى تركناه خلف ظهورنا وتفرغنا للمعارك وعلو الصوت والضجيج!!

غيره أعداؤنا المحليون والغرباء . غيروا عناصره وعمارته وأعادوا صياغته وحين أنهكنا العواء والخواء والجفاء والعداء وجلسنا منهكين ، حانت منا التفاتة لواقعنا الذى تركناه منذ دقائق - بثلاثين عاما مثلا ليس أكثر - فلم نتعرف عليه . استغل الأذكىاء انهماكنا فى جعل الأصوات صوتا والوجوه وجها والأهداف هدفا ، وحققوا ما حلموا به . حين نظرنا لم نجد ذلك الذى خضنا من أجله المعارك الدامية التى تلوثت خلالها ملابسنا وملامحننا ، وتمزقت سيرنا وسمعتنا ، وسكن الشك دمننا وارتمينا على قارعة الطريق تحت أقدام التجربة منهكين صفر الوجوه خائرى القوى ننظر للعالم يجرى كقطار الصباح ونحن عاجزون عن اللحاق به حتى بالتخيل أو القبض على حبال الأحلام والأمنيات .

تغير العالم إلى الأجل نعم ، لكن ذلك تم فى الجهة الأخرى . أما هنا فإننا نراه من قعره أو من ظهره العارى . ظهرت العورات وتضخمت السوءات وبانت النتائج واضحة جهاراً نهائياً بؤساً وعاراً تعلن موت الفكر والفلسفة

والمواقف ومجانية السنوات التى قضيناها فى المقاهى والشوارع والسجون .
الصيحات والشجارات والخلافات وانتزاع الزعامات . لم يكن المهم البحث عن
الحقيقة بقدر ما كان الانتصار الفعلى يتمثل فى سحق الآخر . تنفيذ رأيه ،
وإظهار جهله ، وإلباسه ثوب العار مهما كانت برأته وصدقه وتضحياته من
أجل التحقق .

حين أفقنا من الرقصة العبيثة وجدنا "الشطّار" اقتسموا الدنيا بأمانة .
لصوص الخارج ولصوص الداخل . دون شجار أو مزاحمة أو صوت مرتفع .
قسّموا التركة فى هدوء . إنتصروا وتركوا لنا الهزيمة .

أكلوا الكعكة . شربوا أنخاب الانتصار . استولوا على المقدسات
والمحرمات هناك . استولوا على الزرع والضرع والصحراء والنيل والسماء
هنا . دون أن يلجأوا للسرية ، خلقوا شرعيتهم اللصة ومرقوا من بيننا صفوفنا
مزهوة بالنصر تعزف الموسيقى أمامهم ، وتنتثر الزهور على مواكبهم . هؤلاء
الأبطال الذين غيروا العالم ، شكلوا مستقبل أجيالنا المقبلة ، بينما نتزاحم نحن
للاستمتاع بالكرنفال الرائع ، ولا مانع أيضا من أن نتشابه فى صراعنا من
أجل الحصول على موقع صغير فى الزحام ملائم للفرجة !!

أطفال كوسوفا ..!

لم نكن بمفردنا فى منتصف القرن حين حلمنا بخوض المعركة الكبرى من أجل أن يسترد الفقراء ثروتهم المفقودة فخرجنا نحرصهم على ثورتهم الموعودة...!!

كان الروس قد سبقونا بكثير وسبقتنا الصين بأيام ولكننا لم نكن بمفردنا . كان المدّ يغزو كل شواطئ الفقراء فى العالم وينحرها نحرأ من كوبا إلى "الصومال" ..!!

هتفنا . اجتمعنا فى الظلام . تأمرنا على الأنظمة فى كل مكان فى العالم . روقبنا ووضعنا تحت المجاهر المباحثية . دققوا فى ملامحنا وحفظوا أسماءنا . دلفنا إلى أبواب السجون الضخمة ومنها إلى عتمة الزنازين الضيقة وكانت الثورات فى كل مكان تدفئ بعضها بعضا ويؤنس الرفاقُ الرفاقَ من الأقاصى إلى الأقاصى...!!

فى سماوات العالم ارتفعت صور الزعماء كالرايات توجها نضالها بأكاليل الغار: كاسترو . جيفارا . هوشى منه . جيباب .. إلخ .. يسيرون تحت أضواء لينين الكاشفة أو على الطرقات التى مهدّ لهم وعورتها ماوتسى تونج...!!

بنظرة إلى الدنيا يوم ذاك يغزوك اليقين بأن الفقراء لا شك كانوا فى طريقهم إلى الاستيلاء على مقدراتهم وتدبير أمورهم بأنفسهم وهزيمة الأغنياء والصوص والقتلة هزيمة لا يقومون منها...!!

كنا فى مصر جزءا من حركة الثورة فى الدنيا . انخرطنا فى هوجة الغزو
الفقراى لحصون الأغنياء قتلة الشعوب وسارقى الأقوات . حلمنا بثورة على
الثورة وباسترداد الحقوق التاريخية للشعب المستلب المنتهب !!!

فى نهايات القرن ، تسرب الضوء من النوافذ فاستيقظنا من نوم طويل لتفوق
الأحلام من الشبابيك عائدة إلى مستقراتها البعيدة مهاجرة إلى غير رجعة . نعم
إلى غير رجعة . استيقظنا على العجلة وهى تدور بسرعة مذهلة وعلى
الأغنياء يلتفتون أنفاسهم ويتبؤأون المواقع وترتفع أصواتهم . على اللصوص
ذوى القلوب الجريئة لا يلتفتون خلفهم وهم يسرقون وينهبون البنوك والإدارات
والوزارات بعد أن تأكدوا من مجيء عصرهم . حان الحين للانتقام من الفقراء
وممن دافع عنهم.

من كان يحرس الفقراء بالأمس أصبح حارس الأغنياء اليوم . أصبح
الحراس لصوصا . اعتلوا الأجهزة نساء ورجالا وحولوها فى ثوان إلى
إقطاعيات خاصة . الإقطاعيات التى ادعى من كان قبلهم أنها ملك الفقراء وفى
الحقيقة فإن الفقراء لم يملكوها لا فى الماضى ولا فى الحاضر .

سلمها الأغنياء للأغنياء بينما أقعدنا اليأس فى بلاهة ننظر ، وفى صمت
وفى عجز عن أن نوفر لفقرائنا مجرد اللقمة الحاف !!!

خلال الشهور القليلة الماضية ، كانت كل فضائيات العالم وتلفزيوناته تبث
صوراً يومية لأطفال كوسوفا المطاردين الذين حكم عليهم الصرب بالتشرد فى
البلاد المجاورة والاختباء ذعراً فى الجبال والغابات يتهدهم الموت جوعا
والذين استقر معظمهم فى النهاية فى مخيمات داخل حدود ألبانيا ومقدونيا
وغيرهما . كان الأطفال لاهين غير مدركين تماما لما يقاسيه الأهل وما
يتعرض له موطنهم من نفس وإبادة ومحاولة لمحوه من على خرائط العالم .
على الرغم من كل ذلك حين كنت أراقبهم كنت أرى ملابسهم جميلة ونظيفة
وخودهم رغم الجوع والتشرد - حمراء كتفاحات أشجار الطرق فى تلك البلاد

الرائعة . كانت المقارنة تعقد رغما عن أنفى بينهم وبين أطفال قريتي أبنود
فى صعيد مصر !!

هذه القرية لم يعتد عليها الصرب ولم يشرب دماءها السفاحون ولم يحرق
منازلها الوحوش العنصريون ، ومع ذلك فإن أبدان أطفالها الهزيلة تشى بواقع
أسوأ بكثير ، وبتجربة أكثر مرارة وتعقيدا من واقع أطفال كوسوفا . الوجوه
صفراء فى لون الكرم ، الأسماك على الأبدان والأقدام الحافية تكتب تقريرها
الصريح القاسى عن واقع الحياة وأحوال الأب والأم والذنيا بأسرها فى هذا
العصر ، عصرنا الذى نفخر به !!

فى كوسوفا تجد الحرائق مندلعة من الدور "الجميلة" وترى الشوارع
الواسعة المسفلتة برغم مرور الدبابات وانفجار الألغام وتكتشف كم هى رائعة
تلك البلاد المحترقة التى لم تبخل حكومتها المعادية فى أن تجعل منها أماكن
جميلة ، على عكس بلادنا وقرانا متاحف القبح . بعد أن تغادر القاهرة بثلاثه
أمتار إلى الجنوب سوف تكتشف أنك انتقلت إلى قطر آخر وعالم مهمل لا يمت
بصلة إلى مصر . كأن القاهرة وبعض مدن الشمال هى سكنى الصرب ، وكأن
صعيد مصر مأهول بالألبان نشن عليهم حرب الإبادة !!

تعتساء أطفال الصعيد لاشك ، ولا شك أنهم حين يرون أطفال كوسوفا
بملابسهم الرائعة الملونة وأحذيتهم الجلدية على شاشة التلفزيون لا يستطيعون
إخفاء حسدهم. تماما مثلما يرون إعلانات المواد الاستهلاكية فى تليفزيوننا
الموجهة لأطفال المدن أبناء الصرب المصريين !!

لم نعد ثوريين كما كنا ولا نريد . صرنا إصلاحيين . مشائخ ندعو الله أن
يرزق الفقراء لقماتهم وأن ينزل الرحمة فى قلوب الأغنياء .

أصبحنا نرفع أيدينا إلى السماء نطالب الرب بالقصاص بعد أن فشلنا فى
أخذ ثأرنا بأيدينا !!..

البلياتشو..!!

هذا هو مستر بيل كلينتون - الطفل المعجزة - فى بدء جولته الأفريقية ، يبدو أكبر من سنه المصطنعة . ساحت أصابعه الدقيقة الخفية فى زحام البشر وتحت شمس أفريقيا العفية ، يتزاحم من حوله السود ويضغطون عليه ويبططونه فيخيل إليك أنه حيوان أليف ضال وقع فى فخ غير مقصود .

لا شك أنه تذكر مئات الأفلام التى رقص فيها الزوج الذين يرتدون أحزمة الريش وخلاخيل الشخايل حول فريستهم البيضاء . والتى من كثرة ما أنتجتها بلاده صدقها هو فزع . ينظر حوله محاولا الاستجاد بمن جاء "على حسنهم" علهم يرفقون به وينقذونه من "حب الجماهير" . تخنقه رائحة العرق الأفريقى النفاذة فيكاد يخنق فى الهواء الطلق !! فرحت له . منذ وقت طويل وهو يتلطم من اتهام إلى اتهام ومن هيئة قضائية إلى هيئة إعلامية . منذ وقت طويل لم يجرب محبة الجماهير المكتظة ، فهو يفضل الحب واحداً واحداً أو واحدة واحدة .

منذ انتخابه للمرة الثانية رئيساً للعالم ليجلس بمفرده على الكرسي الذى يحكم العالم لم يجرب محبة الجماهير المتدافعة فى صراع الأكتاف . لم يجرب التزاحم . ثم إن تزاحم المخلوقات الأمريكية الكرتونية غير تراحمن . الجماهير الأمريكية رقيقة هشّة معطرة تتحرك كعرائس الموسيقى فوق علب الحلوى ، لكن هؤلاء الذين شقق أقدامهم المشى فى الغابات وتمزقت جلودهم فى المسلفة

بين الشمس الحارقة وبين الأمطار يحاصروهم الجوع والجفاف والسنوات
العجاف فإنهم يكادون أن يقتلوا الرجل الدمية حبا !!

هو الآن فى "أكرا" - بغانا - يصرخ فيهم . يصيح . يصرح . يعد . لكنى -
فى الحقيقة - أراه يتوسل طلبا للإنقاذ من الحر والعرق والحب القاتل . ما هم
يتقدمون زاحفين محيطين يحملون الأعلام الأمريكية الورقية الصغيرة يعلنون
الحب . اللون الأسود ماهر فى إخفاء العواطف . يعتصرونه . يفزعونه وهم
يصرون على لف ثوب قماش أصفر مبرقش حول جسده على الطريقة
الأفريقية . نجحوا أخيرا فى تقيطه به حول بدلتة وراحوا يرقصون - كما فى
الأفلام - غير عابئين بتزايد إحساسه بالحر القاتل - الذى تنتمى إليه البلاد
وينتمى إليها - فيسيل عرق الرجل الأبيض أنهارا ، وبحمر وجهه الذى لا
ينقصه احمرار ، ولا من منقذ . فالجميع سعيد عداه ، وعليه أن يدفع ثمن حب
أفريقيا له ، وأن يدفع ثمن ما جاء لإخفائه منتقلا به من المكتب البيضاوى
والفراش ، إلى حرارة الأحراش !! ليدفن سيرة من تحرش بهن فى الحجرات
الخلفية ، فى برميل العرق الأفريقى والبوظة الوطنية !!

لست سياسيا محترفا ، ولست مواطنا مختلفا . لكنى أحسست وأنا أرى
(الرجل) - الذى ادعى الرقة طويلا بل والطفولة - وقد كست وجهه تجاعيد
سنه الحقيقية - يغرق وتغرق معه أمريكا . قد تكون العجلات الاقتصادية قوية
مازالت ، والموارد غنية ما زالت ، لكنى أرى السوس ينخر وأرى السفينة
بعينى تغرق .

قد يكون حلم شاعر وطنى يُعانى شعبه الأمرين من هذه القوة المهيمنة ،
لكنى أعرف جيدا أنه مضى زمن أن تتدع العرب بلبس العقال العربى

كلورانس أو أن تلتف في رداء ليس مخيطاً لتدعى الأفريقية وأنت تحكم بلداً
يحتقر السود والسود ، ويفرق فيه اللون بين عباد وعباد !!
بليانتشو بحكم العالم !!

غفرت ساعتها للذئس كل سوءاته ، فقط لأنه أرانى كيف سخر أهل غانا من
"الضبع" الأمريكى . كيف ألبسوه الخيش والبردعة وراحوا من حوله فى نشوة
يرقصون وكأنه ذبيحة العيد !!

لأول مرة أحس إشفاقاً على القاتل الطفل . كاذب العواطف وزوجُه الأكثر
كذباً. لأول مرة أتعاطف مع بيل الراحل إلى أفريقيا للإستيلاء على عروش
الامبراطوريات القديمة ، يمارس نفس الكذب الذى يمارسه أمام المحققين
وأجهزة الإعلام فى التهم الثابتة !!

رأيت انهيار الامبراطورية التى قامت على الكذب والاعتصاب والاستباحة
والإبادة بعد أن استنفدت كل حيلها الصبائية .

ابن السوق

وأنا أيضا أريد أن أعمل بالتصدير !!

ننام على سيرة التصدير ونصحو على اقتراحات بتحسين بضاعته وفتح أسواقه حتى أصبح مشكلة الكبير والصغير الحاكم والمحكوم . شيئا فشيئا نضج داخلى الإحساس بالرغبة فى تغيير "كاريرى" أو (كارى) والمشى خلف هذه النداءات الصادقة الحارة التى ترى فى التصدير منفذاً وحيداً وضرورياً للخروج ببلدنا من ضائقته الاقتصادية ، وتعويذة مجربة للنهوض فى عصر النهضة والدخول بها متدلية من رقابنا إلى أبواب القرن الجديد بفكر جديد يحقتر الاستيراد ويهمل التصدير .

التصدير مهنة تحتاج إلى ذكاء شديد وإعمال جاد للفكر وفهم شامل للحياة يعتمد على نظرة ثاقبة لخرائط العالم ودرجات الكثافة ، والحاجة المعتمدة على طبائع البشر وتراثهم وتواريخهم وأساليب الحياة ونوعيات الاستهلاك . الأهم من كل ذلك ما ينقصهم هناك مما يتوافر لدينا هنا !

وأنا والله الحمد اكتشفت أننى ذكى جداً وملهم وفهمى للعالم لا يشوبه قصور نظر ولا يحجبه ضباب . عملى جداً . ضد الرومانسية . أفهم البشر واحتياجاتهم وطباعهم ولدى إلمام محكم بأمور الأسواق والاستهلاك فأنا ابن سوق ، لولا افتقارى لرأس المال لكنت غولاً من غيلان عصرنا الاقتصاديين ! لقد استهلكت العمر فى مراقبة البشر - هناك وهنا - وفحص وتمحيص سلوكياتهم المختلفة - اقتصادية وأخلاقية - ماذا يأكلون ، يشربون ، يلبسون .

تغلغلت فى فهم ذلك حتى صارت لدى الثقة المطلقة بفهمى ، والقناعة التامة برويتى . صرت من فرط إيمانى بوعى وثقتى فيما أملك أكتب الشعر عن البشر وألقيه بثقة فى المنتديات الخاصة والعامة ، ولم يحدث أن اعترض أحد على - حتى - جزئية صغيرة من أقوالى ، أو على صورة فرعية ضعيفة من صورى الشعرية ، ورغم إبلاغى من قبل الجميع بروعة شعرى وحرارته وصدق تعاطفه الإنسانى مع البشرية إلا أننى لم أستطع تصديره إلى الخارج حتى الآن ، وفشلت فى ذلك فشلا أكيدا مفضوحا !

لم يترجم - بالشكل التجارى التسويقى - إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية واليابانية ، ومازال حتى الآن يتخبط فى لغته الأبودية كسمكة نسيتهام المياه المنسحبة فى طين البرك هنا .

اكتشفت أن ليس كل الأشياء قابلة للتصدير . لابد لى لكى أنجح من البحث عن سلع لها عمومية فى الاستهلاك كالهواء والماء والخبز واللحوم والخضر والصابون. سلعلا يستطيع الإنسان أن يستغنى عنها حتى لو قرر ذلك !

قررت - بعد تفكير عميق - النزول إلى حلبة التصدير ومزاحمة رجال المال والأعمال من ذوى العضلات المقتولة والأجساد الضخمة الذين صاروا يتصدرون الساحات ويحتلون الشاشات ويدلون بالتصريحات ولا يتخذ قرار سياسى قبل التأكد من أنهم راضون عنه ، ولن يغضبوا منه !

قررت النزول إلى غابة رجال الأعمال والانخراط فى عاصم "أبضايات" التصدير لأفيد أهل بلاد الدنيا بالفائض لدينا من إنتاجنا مما لا يوجد لديهم ، وإدخال كميات ضخمة من عملتهم الصعبة تزيد من سرعة نبض التنمية فى بلادنا لتدخلنا أكثر ثقة بأنفسنا وباقتصادنا فى القرن الجديد !

هدفى الأسمى تقريب المسافة بين الاستيراد والتصدير ، وهى الخدمة الوطنية العصرية التى يجب أن نسعى جميعا لإنجازها إنا نستورد الآن من

الرغيف إلى عجينة الطعمية ، وهذا لا يليق بشعب قامت شهرة استمرار حياته على اعتماده الفول والطعمية منها ورؤية وهنأ !

زمان ، كانت الوطنية تعنى العءاء لأعداء أملك . الاستشهاد على أرض الوطن من أجل حماية ترابه . أن تسجن من أجل فقراء بسلاءك . أن تكتسب قصيدة فى عشق سمرة وجوه أهلك وأن تزين لهم جمال حببات العرق وحلاوة أن تستغل من أجل غء أجمل وفجر جءىء ، و"بات مظلوم ولا تبات ظالم" . كانت هذه هى وجوه الوطنية التى أءت بنا إلى أن نعلم شعوبنا الكساح بءلا من الكفاح ، وأن نسام فى النصب عليهم لمصلحة الطبقات الحاكمة ءون أن ىءل جيبنا ملیم أءمر !

أما الوطنية الآن فهى المزاحمة بالأكتاف على حلبات الصراع الاقءصاءى التى یمثل ترمومتر التصءیر النتائج النهائية لمبارياتها ءامیة القاسیة ! قلت لنفسى : ماذا فى بلادنا مما لا ىوءء منه فى أوروبا أو أمريكا أو كل البلاد التى تستورء ؟ ماذا مما هو متوفر عندنا بلا ثمن ولا ىوءء لءیهم منه شىء وىكون سهلا خفیفا فى تصءیره ، اقءصاءیا فى نقله ؟ فكرت عمیقاً ثم فجأة هبطت الفكرة على الوعى كالوحن ، خرجت صائحا : وجءتها وجءتها . الكءب ، النفاق ، الخوف ، الهیافة ، اللانءماء ، عءم الاحساس بالوقت ، الـ .. الـ ..

جبال لا تءفء مناجمها ومخزونها . مواد خام شءیءة النفع لهم إء لیس من المعقول أن یعیش الإنسان جاءا إلى هذا الءء لیلا ونهارا طوال عمره . لا بءء من بعض الراحة . من خلط الجءیة بعجینة الهیافة حتى تصبء الحیاة محتملة . هكذا اكتشفت أننى سوف أنجح فیمما فشل فیه الاقءصاءیون . هؤلاء الءیین یرىءون تصءیر ملابس ومنتجات زراعیة من إنتاجنا وصنع أیءینا بءل أن ففكروا - مثلى - فى تصءیر ما هو متوفر فى بلادنا لءرءة المجانىة . رخیص السعر . سهل النقل . لا یءتاج إلى تغلب أو تغلب مما اشءهر به المصریون عالمیا !

الدماء القديمة ..!!

لم أكن غريبا هناك ، فأنا أيضا ابن من أبناء الجنوب أحاول التحلى بخلقته وحمل قيمه وانضباطه ، لم أجد الفارق بعيدا بين أهل "قنا" وأهل "صيدا" !!

هذا هو "الجنوب اللبناني" وهذا هو ما يسمى "بخط التماس" أضواء مواقع العدو - نفس العدو - مضاءة ، يرقص ضوءها تحت الأمطار .

ها هم الرجال ، وكأنهم نفس الرجال : الرصانة والعزم والتحفز .

ها هي "قنا" تحتضن شهداء المجزرة الشهيرة رجالا ونساء وأطفالا .

استيقظ شاطئ قناة السويس فى الجنوب اللبناني . انتفض وقام فى الذاكرة حيا نابضا بكل تفاصيله الرائعة وقصص البطولة التى كنستها رياح سنواتنا وضجيج البيع والشراء فى سوق الزمن الجديد !!

استيقظ عم "إبراهيم أبو العيون" والحاج "محمد عبد المولى" و"إبراهيم أب زعزوع" و"على أب سلمى" البيوت التى هدمها العدو ، الأشجار التى ذبحت ، الحقول التى بارت ، آثار الدمار تحفز فى الذاكرة أسماء الشهداء إسما إسما .

مررت "بصبرا" و"ساتيلا" ومخيمى "عين الحلوة" و"المية مية" وفى الجنوب أكلت خبزا وملحا فى الدور التى يعاد بناؤها بعد هدمها مباشرة ، وقطعنا بالسيارة مئات الكيلومترات فى طرق جبلية نصد وننزل لنصعد ، يختفى ضوء العدو ليظهر ليختفى . هذا هو معتقل "أنصار" الذى عذب فيه شباب الجنوب . يسخر المرافقون من لعبة العدو الجديدة حول الانسحاب .

الشعب اللبناني أول شعب عربى يرفض إنسحاب الاسرائيليين وهو يقهقه!!

شعب حى يتمتع بنشاط زائد يفوق نشاط النمل ، بل إن أحد شعرائهم
العاميين يجعل من النمل قدوة :

"سَطَرُ النَّمْلِ"

أو كتابة على الرمل!

وكما كنا أيام حرب الاستنزاف ، تحول نصف سكان الجنوب اللبناني إلى
شعراء عامية ، عاميتهم العذبة تصطبغ بحرارة الجنوب وتتلون بدماء الشهداء
لتصبح شعرا حقيقيا ، بعيدا عن الصورة التى يحاول تكريسها مطربو هذه
الأيام ولبنانيات "الدش" .

فى السراقد الضخم الذى نصبوه فى إحدى الساحات ، كان "الجميع"
هناك ، وكان للشعر مذاق افتقدناه منذ حاربنا فى أكتوبر وانتصرنا !!.

فى الجنوب تحب سوريا ، تنتقل إليك عدوى محبة الشعب السورى الصديق
لتكنس كل أوهاملك التى همس لك بها العديد ممن أتيح لك لقاءهم والتحدث
معهم من أعضاء الفرق الأخرى ذات المصالح والمطامع !!.

نزلت بـ "الإستراحة" الفندق الوحيد هناك . كان البيروتيون يشفقون على
من قلة الفنادق وتواضعها . لم يعرفوا أنى شاركت "عم إبراهيم" حصيرا
للليال طوال، لم تكن البراغيث ولا الناموس تمكننى من اختطاف لحظات نوم
إلا حين تضمحل الذاكرة ويهمد الجسد وتكف أصوات الاشتباكات
والانفجارات . لم يعرفوا أن علاقتى بالفنادق حديثة جدا وقليلة جدا .

حكيت لأصدقائى من أهل الجنوب اللبناني عن تلك الليلة التى حاصرتنا
فيها دانات المصريين والاسرائيليين وعن ذبح النخيل والأشجار وتهدم الجدران
فوق خندقنا البدائى الفقير ورؤيتى الموت رأى العين .

حدثتهم عن "ولاد الأرض" وعن الكابتن غزالى وأغنياته التى كانت تجوب
أنحاء مصر . عن الشهداء ولم أشلائهم على عربات الكارو بينما راديو

العاصمة يذيع "سوّاح" تماما كما يحدث هناك وكيف كان أهل السويس القليلون
يتندرون على أهل العاصمة ويقولون عنهم "الأخوة فى القطر الشقيق
القاهرة" !!

عرفت لماذا غنت الأصيلة "ماجدة الرومى" أغنيّتها الدامية "قانا" ولماذا هى
جادة إلى هذا الحد ، ذلك لأنها جنوبية من "صيدا" كما أعلمنى أصدقائى
الجنوبيون !!!.

هذا مكان حى ، يتدفق حياة ، ويصعد جبال الحزن والمعاناة والشقاء
ليلامس شمس الغد الضاحك الذى يعرفون ملامحه جيدا قبل أن يأتى .

بدخولك إلى أرض الجنوب اللبنانى تغادر الموت العربى ، والاستسلام
وأجواء الهزيمة ، والخرائط المؤجرة ، وتدب فى عروقك الدماء القديمة فتتقلب
ذاكرتك إلى الكتب القديمة والمبادئ القديمة والشعارات القديمة تنتظر نحوها
يملوك إحساس بالذنب لا سبيل إلى تجاهله !

الرسالة

أراد العدو الصهيوني في الأسبوع الماضي أن يبلغنا رسالة غاية فى الأهمية مما يدل على صدق إخلاصه وحبه الشديد لنا من خلال المعركة الانتخابية التى ألفت بنتنياهو فى مزبلة التاريخ وجاءت بإيهود باراك . تتلخص هذه الرسالة فى أنه لن تقوم لنا قائمة وأن كل الأهداف الصهيونية والنوايا التى تنتويها إسرائيل سوف تتحقق على مر الأيام وبأسرع مما نعتقد ويعتقدون ، فالقدس لن تخرج من أيدي اليهود إذ لا يوجد (صلاح دين) آخر يواجه الدولة النووية التى بدأت منذ نصف قرن من مجموعات وشراذم وأفراد من "الصايعين الضايعين" لتصبح أقوى دولة فى دول الشرق الأوسط . دولة ترهب العالم كله وتخرس ألسنة مجلس الأمن والأمم المتحدة وكل المنظمات المشابهة فى الدنيا بأسرها .

الرسالة تتلخص فى أنهم يملكون الديمقراطية التى لا نملكها ، وحرية اتخاذ القرار الذى لا نستطيعه . يحترم كبيرهم صغيرهم وصغيرهم كبيرهم ولا يترأسها إلا من عمل صالحا لوجه الله والوطن دون هزل ولا هزر . يعرف الجميع حقوقه السياسية ويؤدى واجباته فى العداة لنا على أفضل ما يكون وتعمل من حوله كل المؤسسات العلمية والعملية والدينية لتقوده فى هذا الاتجاه : اتجاه تقطيع أوصالنا وبتر ألسنتنا الثرثرة الكاذبة وهز عقيدتنا التى لا نعتقد بها وفضح علاقاتنا بالوطن التى تشبه علامات الاستفهام . إن حربهم ضدنا لم تتوقف لحظة : بالمخدرات حيناً وبالإيدز حيناً وبالسموم التى تعبر إلينا فى البذور والأسمدة والمبيدات أحيانا .

انظر ماذا يتعلم طفلهم في المدرسة وماذا يتعلم طفلنا . انظر ماذا يبيث إعلامهم طوال اليوم ليشكل لهم رؤية و كيانا يوحد التنافر والهلهلة ليجعل منهم القوة التي ترهبنا والتي لا نتخذ قراراً دون التفكير فيها .

انظر إلى سياسيتهم وسياساتهم : لا بلطجة لا نصب لا فساد لا رشاوى لا إتاوات لا صحف تكذب لا كاميرات تزيف وإنما وكأنهم ماضون فى طابور عسكرى يستغرق حياتهم بأكملها .

إسرائيل بأسرها فى الشارع رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً أصحاب لحى ولايسى الشورت تمارس حقها فى اختيار حكامها علنا جهاراً نهاراً . هل نفعل نحن ذلك ؟ هل مسموح لنا بذلك ؟ هل فعلنا يوماً شيئاً مثل ذلك ؟ هل زورت - هناك - بطاقة انتخابية واحدة ؟ هل استيقظ الموتى واتجهوا لصناديق الاقتراع ؟ هل (قفل) البلطجية والأذئاب والذبول الصناديق قبل أن يستيقظ الناس ؟ المعركة كلها كانت على عينك يا تاجر ، لا مطاوى ولا جنازير ولا ضرب نار ولا رشاوى ولا هباب . لا أموال نهبت من ميزانية الدولة لتوزع على البلطجية وقطاع الطرق ليتحكموا فى الرياسات والقيادات وليأتوا بمن سوف يسرقون البنوك ويختلسون ويتاجرون فى الكيف و .. و .. و ..

هذا النتنيهاو الذى كنا نراه أصلب من الرخام ومن أعمدة العند الذى كنا نحس بالإنسحاق أمامه أطاح به الشارع الإسرائيلى فى أقل من ساعة ، بينما نحن لدينا وزراء ولد من ولد وكبر ودخل الروضة فالابتدائى فالاعدادى فالثانوى وتخرج فى الجامعة وتزوج وأنجب والوزراء مازالوا وزراء . أجذب الواقع إلا منهم . الوحيدون الذين خلقهم الله ووهبهم المعرفة التى حوت كل شىء . لذلك أدقع واقعنا وصفت عروقنا من دمانها وشحبت وجوه أوطاننا التى تذبل على عودها كالثمرة الفاسدة المهملة . بينما عدونا كالحية يغير جلده كلما ضاق عليه ليجدد نشاطه من أجل أن يمارس عدوانه الدائم علينا . نسهل له مهمته ونساعده بإخلاص شديد .

ليست القدس فقط هي العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل بل أرى كل عواصم العالم العربى عواصم أبدية لها . نتخلى إن طوعا وإن كراهية عن حبنا الكاذب لأوطاننا لنسلمها لها أرضا وزرعاً وضرعاً ومالا ومؤسسات ومنشآت ونمهد طرق الالتفاف من حولها ومن حولنا حتى سكن العدو نبض العروق ونقاط الدم ونسج العلم ونشيد الوطن وقلبات الحب . كأنه يقيم فى قلوبنا منذ الأبد وفى سرائرنا منذ اخضرت الأرحام !!

هذا هو الدرس الذى أراد عدونا بكل فخر أن يعلمنا إياه وأن يفهمنا أننا خسرنا السباق إلى الأبد وأن ما لم يستول عليه اليوم سيستولى عليه غدا ، فقط لأنه يعيش عالمه بصدق ، ويصنع تاريخه بصدق ، يكره بصدق ويحب بصدق ويتحالف ضدنا بصدق ويقاتل بصدق ويزور الحقائق بصدق وينسج الأساطير بصدق ويخاف على أبنائه بصدق ، ويكي على الجندي الواحد الذى يفقده بصدق ، بينما فرطنا نحن فى ملايين الشهداء . بعناهم بلا ثمن . لم نستهلك وقتا طويلا فى نسيانهم .

كأننى أقصد أن أجركم للحزن وأمهد لليأس وأبشر بالهزيمة ولكن الحقيقة حقيقة والواقع واقع والصدق صدق !!

أناشيد الباطجة ..!!

اتضح أن كل المجالس سواء . لا فرق بين أن يكون المجلس فى بلاد الديمقراطية أو فى بلاد الصمت الهمجى . أن يكون المجلس مؤدبا مهذباً أو أن يشبه حظائر الدجاج وأسطبلات الحمير . الكل فى الباطل سواء . الكل يفتى على الإبرة ويبلغ المبرة ...!!

تدخل القوانين خائفة مرتعدة مشبوهة يجللها العار . تدارى عوراتها وتخفى وجهها فزعاً من المواجهة ، وتخرج من أبواب المجالس عروساً بكرأ نقيّة الأطراف، طاهرة الذيل كشعاع من ضوء قمر يضىء للمرة الأولى ...!!

كل المجالس مشبوهة ، تحكمها المصالح : من مجلس الشيوخ الأمريكى لمجالس العرب الأهلية التي تحكم بين القبائل بعيداً عن السلطة وشبهة الرسمية والتي من المفترض أنها شعبية خالصة وأنها اختيار حرّ بحث . فى إمكانك أن تعترض على كل أو أحد أعضاء المجلس وأن تغير من تحب تغييره وتأتى بمن تحب من أصغر أعضائها إلى الرئيس . كل من المتخصصين يسعى لأن يأتى بمجلس تربطه به مصالح ليصل إلى نتائج تتوافق مع ما يبغي . ذلك الاختيار سيفعل فعله لحظة النطق بالقرار .

هكذا برئ السيد "بيل كلينتون" من تهمة ممارسة الفاحشة وتعطيل سير العدالة. ورغم أن التهمتين واضحتان لا سبيل إلى الشك فيهما ، ورغم أن العالم كله على طول وعرض الماء واليابسة فى كل شبر من خرائطه يعرف ما ارتكب رئيس البلاد التى تحكم البلاد ، إلا أن الأصوات التى كانت تتلادى :

"ليس مذنباً" كانت أوضح جداً وأكثر ثقة وإحساساً بالشرعية من تلك التي كانت تقول الحقيقة بإنكسار المذنبين "مذنب"...!!

هكذا انتصر الباطل . إنه سلوك المجالس العصرية في البلاد كافة . لم يعد أحد ينتصر لحق ، وإذا كان هذا الفجر والدُّعُر والغُر هو سمات السلوك السياسي لحارسة الديمقراطية في الدنيا ، فماذا ننتظر من أعضائنا الغلبة الذين أتوا لمجلسنا على أطراف المطاوى ورقص السكاكين وتحت زئير الوحوش وأناشيد البلطجة والذين لا يملكون شيئاً من بركات هذه الوقاحة والصفافة التي برأت الرئيس الأمريكى...!؟

إن أعضاء مجلسنا يأتون من كل فج عميق ليلاً وفي الساعة الأخيرة لعمل المجلس لتمرير قانون مريب ليهربوا بعدها عائدين إلى بلادهم تاركين ساحة المعركة لأهلها : الحكومة والصحافة . لا يعودون إلا إذا طلب منهم العودة لإلغاء ما اتفقوا عليه .

أما مجلس الشيوخ الأمريكى فإنه يملك بجاجة الرئيس نفسه فى كسر رقبة الحق وإعلاء الباطل دون أن يطرّف له جفن .

لا يهمننا من مارس الجنس مع من ، وهل كان جنساً كاملاً أو ناقصاً . وهل ضلل رئيسهم العدالة أو لم يضل ، فهمومنا واهتماماتنا مختلفة عن كل ذلك . نحن قطعان البحث عن الطعام اليومى وكسوة العيال . لا نملك رفاهية البحث وإضاعة الوقت فى جدل حول تضليل العدالة إذ أننا نعيش فى بلاد هجرتها العدالة من كثرة ما ضللناها .

نشكو إلى الله بصوت مرتفع ونقلب على الظالمين حصر الجوامع ، وفى النهاية نبتلع الغصة ونصاّدق الظلم ، ولا ندعى أننا حراس العدالة والديمقراطية فى العالم.

لا نغير على الأقطار الضعيفة ولا نقتل بشراً آمين ولا نتحايل على نهب ثروات الشعوب بالادعاءات الفارغة . لا نقدم رؤساءنا إلى محاكمات صورية كاذبة بل أخذناها من قصرها منذ وقت طويل وصمتنا !!
للمرة الألف يعتذر الرئيس لشعبه .

للمرة الألف يقبل الشعب اعتذار الرئيس .
وللمرة الألف تُغير طائرات الرئيس على جنوب وشمال العراق تدفن المدنيين ، وتهدم منازل الأمنيين على الأمنيين دون إحساس بذنب ودون كلمة اعتذار واحدة...!!

لا شك أن الرئيس وزوجته - التي كانت جريحة ثم نسيت جرحها مع مرور الزمن وعدم ضياع السلطة عبر المسلسل الأمريكي ذى الألف حلقة - سيحتفلان بمناسبة انقشاع الغمة بمزيد من الغارات البهلوانية في سماء العراق نحو مزيد من نسيان فعلة السيد الرئيس ...!!

إنها المجالس الرائعة . يدخل إليها الإنسان صدىً متقوياً ليخرج لامعاً يشع كبديل الأعضاء ودبابيس ربطات العنق ، والأصوات التي تطفئ ضوء الشمس بقوة المال وسطوة السلطة ...!!

إذا كانت الديمقراطية فى النهاية هدفها تزييف الحقائق تماماً كاللاديمقراطية ، وإذا كان مجلس الشيوخ الأمريكى يصب فساداً فى النهاية فى السياسة الأمريكية وبالتالي فى السياسة العالمية ، فلماذا نغضب ونزعج من سلوك مجالسنا المتخلفة ؟ مجالسنا تتبع المجالس القدوة . علينا أن نفخر أن هذه المجالس صورة طبق الأصل من مجالس الدول الكبرى وبالذات مجلس الشيوخ الأمريكى الذى أثبت أنه لم توجد أصلاً فتاة اسمها "مونيكا لوينسكى" وأثبت أن الرئيس لم يكذب ولم يضلل العدالة حين كذب وضللها ، وأنه يستحق البقاء فى منصبه لأن إدارة شئون العالم اليوم فى حاجة إلى رجل محترف الكذب والدنس والبجاجة مثله ، لترتفع سيمفونية الباطل وأناشيد البلطجة فى كل أنحاء العالم الجديد والقديم ...!!

الأسف

اعتدنا إذا داست قدم أحد منا على قدم أحد آخر أو تسببنا فى سقوط فنجان قهوة أو شاي على بنطاله أو أردنا الاعتذار عن الخطأ أن نتطلق الكلمة من اللسان فى تلقائية : (أسف) .

أصبحت كلمة الأسف تستعمل فى الاعتذار بديلا عن الندم أو ما يشبهه .

شيئا فشيئا نفك رموز اللغات الأخرى فتتسع مداركنا ووعينا باللغة . علمتنا الروايات المترجمة أو الممثلة على الشاشات أن الكلمة فى اللغات الأوروبية تستعمل بمعان أخرى . فإذا سألت زوجة عن زوجها فأخبرتك أنه مات فى حادث - مثلا - تتراجع مخلفاً أمام سمع الزوجة (I am Sorry) (آى .. آم .. سورى) . لتكتشف أنك - كما فعل الأوروبيون - تنطقها بمعنى (البقية فى حياتك) .

اكتشف فجأة أن جميع الحكام العرب أوروبيون . عرب معنا فقط حين يلوون وجوههم فى وجوهنا ويكشرون عن أنيابهم وينطقون اللغة كما نفهمها أما حين يخاطبون الأجانب سياحاً كانوا أو حكاماً فإن أساريهم تتفرج وتسترخى عضلات الوجه ويخرج الكلام هادئاً ناعماً كأنهم أوروبيون أباً عن جد . ينسون لغتنا ويستعملون اللغة كما يستعملها الأوروبيون والأمريكيون بالضبط لا تختلف فى كثير ولا قليل ، وبالذات (I am Sorry) هذه . يستعملونها بمعنى (البقية فى حياتك) . جميعاً . لا أستثنى منهم أحداً كما يقول الشاعر العراقي العظيم : "مظفر النواب" .

لاحظت ذلك جيداً وبوضوح - ولعلكم لاحظتموه معي - بعد العدوان الأمريكي الأخير على العراق . كل الحكام العرب أبدوا أسفهم . لا أحد منهم لم يستعمل هذه الـ (I am Sorry) . خرجت التصريحات واحداً تلو الآخر كبرقيات التعازي تعلن عن أسفها لضرب العراق الشقيق وكأنها تقول له : "البقية في حياتك" . الشيء الوحيد الذي اتفقوا عليه هو أنهم جميعاً " آخر Sorry" .

مصر - السعودية - البحرين - الجامعة العربية .. إلخ - هدام الله إلى هذا السلاح السحري الفتاك الذي سوف يصدون به صواريخ كروز وطائرات B52 الأمريكية والإنجليزية المتجهة بدقة إلى قلب العراق تحطم مبانيه ومنشأته وتدفن مصانعه وتهدم بيوت الفقراء على رؤسهم .

قالوها وناموا . أدوا ما عليهم ثم اعتذروا لجماهيرهم عن قطع المسلسل !! رخص الغضب . كثر المطروح منه في السوق العالمية فانخفض ثمنه . تماماً كبرميل البترول . لا يجب أن يغضب حكامنا العرب حفاظاً على قلوبهم فالغضب أخطر آفات القلوب ، لتظل قلوبهم دقاقة رنانة يتمتعون بالجلوس على كراسي الحكم أطول وقت ممكن .

البقية في حياة العراق ، وسماء بغداد العربية تهجرها الطيور الوطنية والقومية هاربة مذعورة من هول النيران لتزدحم بالطيور المهاجرة من أعشاش قواعدها الحربية عبر مسافات ومسافات ، وبحور ومحيطات قادمة على أسطح البوارج وظهور حاملات الطائرات . لا تؤمن بالبلاغة ولا بالجناس ولا بالطباق . غناؤها من النوع الإلكتروني المزمجر . طيور لا تنقر الحب ولا تلتقط الغلال ، وإنما تعرف طريقها جيداً إلى صدور الرجال والنساء والأطفال ولا يروى ظمأها إلا الدم.

فجأة تحول حكام العالم إلى قوادين ، يسهمون جميعاً في تبرير وتمرير الفضيحة الجنسية لحاكم أمريكا الشرير . الكل يتواطأ ليستر الرجل العاهر كي

لا يفقد كرسيه ، ولو كان شعب العراق بأكمله - بماضيه ومستقبله - هو الضحية !!

كم كلفتنا نزوته الخسيسة مع الآتية "مونيكا" ؟ ولماذا يسعد هو لندفع نحن الثمن تعاسة وضحايا وإذلالاً؟ الإجابة بسيطة جدا : ذلك لأن العالم الخارجى يفهمنا جيدا. يعرف أننا أمة من ورق . هياكل وهمية . لا قيمة لنا . لو نفخ فينا بهدوء لطرنا . نحن أضعف حلقة فى السلسلة الدولية . أكثر المناطق المهيأة لدفن النفايات النووية والنفايات الجنسية والنفايات الفكرية . نحن غلاف أمة . دهان أمة . لون فقط . إسم بلا معنى ولا شكل ولا مضمون . أمة تقدّم قربانا وذبيحة على أعتاب القستان الأزرق الملوّث . أمة لا تجيد إلا قتل بعضها البعض . لا يمتد عداؤها إلى خارجها بوصة واحدة . بل إن العدو الإسرائيلى زُرِع واستُتِبت فى أرضها فأكسبته وجوده وألبسته بيدها رداء شرعيته . تتسول وده وتطلب منه العفو عن قتلانا ونسيان نضالنا الإجرامى !!

يُذبح العراق أمام أعيننا فنتابع مسلسل القصف والنسف ببلادة وفى آخر الليل ينام الحكام الذين لا رأى ولا مهام لهم فى هذا الأمر بعد أن أعلنوا للعالم أجمع قبل النوم أنهم (Very Sorry) .

دولاب الدولة !!

أى دولاب رهيب يدير أمور الدول ؟ تستمع إلى الرئيس فيعجبك القول ،
تراقبه فيعجبك المسلك ، تتأمل الوزراء وتتبع خطاهم وزيرا وزيرا فتجد أنهم
تمام التمام مغيث كلام . المنطوق له منطق والتوجه دائما نحو أهداف شديدة
الوضوح والفائدة والجدية !!

تنتظر إلى النتائج فكأنك فى عالم آخر . عالمان : عالم فى الجريدة
والتلفزيون ترسمه الألسنة الرسمية بألوان بديعة مشعة فيه الجائع شعبان ،
والأمدى متعلم ، والفقر مستور على الأقل ، والأجهزة تعمل بكفاءة وتؤدي
دورها فى خدمة الأمة كما لم يسبقها إلى ذلك أجهزة بلد آخر !!

تنتظر إلى الواقع فتعتقد أنك أصبت بعمى الألوان ، إذ الأضواء قليلة
والأمدى ذبالات تترنح ، والمُشع ترابى ضحل الألوان بلا إشعاع . الواقع فى
الألسنة غير الواقع فى الواقع ، عالمان ، دولتان ، أرضان ، بشران !!

رغم ذلك أنت لا تدري من الذى وفق بين الكذب والصدق . خيال
المسؤولين أم واقع البشر التحتيين المر الجاف . من الذى أخفى ورود الخطب
فى شقف طرقات الواقع الوعرة !! تسمع فتتكر الواقع ، وترى فتتكر أذنك !!

تعيش فتكره أصوات القوالين والطبالين ودفاقى الدفوف . تسمع فتتكر
جوعك وتنتكر لفقر أهلك فترى جهلهم علما ، وعظلم عملا ، وإفلاسهم تخمة

فى الرزق ووفرة فى المال ودخولا زائدة عن الحاجة فلا مرض ولا عوز ولا
إملاق . تغضب من جحودك ونكرانك !!

أهلُ فوق كأنهم صادقون جادون حقيقيون ، فلماذا إذن ننلقى النتائج فى
أسفل قمع الطاحون نخالا وترابا وتينا؟ هل هو الدولار الذى بين القمع
ومسورة الدقيق؟ جهاز الدولة الجهنمى يبذل الحقائق ويغير المعايير ويخلط
الصدق بالكذب والفعل بعكسه والقول بضده ؟

هل يعلم هؤلاء الوزراء والرؤساء أن أحلامهم تصل إلينا على هذه الصورة
المغايرة حيث تتحول أمانيتهم من أجلنا إلى معوقات لنا وأسلحة ضدنا وأخطار
تتهدد مستقبل أبنائنا وأوطاننا ؟

هل الجميع على اتفاق ؟ أم أن خبرة الجهاز الحكومى عبر القرون جعلت
من النتيجة المتناقضة بديهية البديهيات؟ أم أن كل الأمور تتم بالاتفاق ونحن
ندفع الثمن جوعا وأسما ، جهلا ومرضا وحسرة حين نرى جهودنا يبتلعها
الذى لا يجهد ولا يجتهد . هل كل ذلك مقصود ونحن هم الأغبياء؟ هل الأقوال
البراقة المطمئنة الحاملة تعلم أنها مجرد شفرة ليندفع نحونا المندفعون يسلبون
وينهبون ويدوسون ويحتقرون وقد يقتلون؟

هل معنى ذلك أن هناك من يريد منا أن نتشكك فى أقوال قياداتنا حين
يلون الألفاظ ويمررونها فى أنابيب التشكيل لتخرج ضدنا فى النهاية تمارس
فعلا عكس الفعل وتقود إلى غايات غير الغايات ؟ من يريد أن يلهمنا الوعى
بوحدة أهداف القول والفعل وأن التفريق بينهما سذاجة ؟

حين نرى هذا السيل المنهمر من سُرَّاق القوت وناهبى الأعمار واقفين فى
الصفوف الأولى يلمعون كالذهب الكاذب ، ونرى شرفاء البلاد يعضغون

أحزانهم متوارين خلف الصفوف . حين نرى اللاجدوى من الكلمات التى تنبّه
والرفض الواضح للسماع فكأننا نهذى بكلماتنا بلدا آخر غير بلدنا . ألا ترى أن
الطريق الوحيد للراحة هو الهزيمة ؟ هو لعق الجراح والأنين الصامت فى أحد
أركان الغروب؟

ألا تقتنع بأن اللاشرعى هو الشرعى وأن المشروع هو الممنوع والممنوع
هو المشروع ويتحقق الانفصال بينك وبين قيادتك كل منكما يستقل بوطنه
وأهدافه وأفكاره الخاصة؟ بعد ذلك هل يمكن أن تسألنى لماذا ظهر الإرهاب
فى بلادنا؟

لقد أفرزه الدولاب الرهيب الذى يدير أمور الدولة والذى يقف بين أصواتنا
وأصوات قياداتنا التى نثق فيها !!

درس فى الواقعية !!

استدار الأخ العقيد نحو أفريقيا غاضباً مولياً ظهره للأمة العربية يأساً وخروجاً على الصيغة التى رسخها أستاذة جمال عبد الناصر بعد أن تراجعت فكرة القومية العربية وذاب فى الضباب طيف الحلم بالوحدة العربية . الأعمال تتقدم ، والقناعات تتآكل ، ومعمّر القذافى رومانسى النظرة والأحلام كالشعراء . يعتقد أن الحكام العرب بمقدورهم الخروج من أسرهم ليفعلوا كما يفعل هو فى قفزاته الثورية المبالغتة!! يتعجب الأخ العقيد من ذلك العشق الأصيل للقيود لدى كل حاكم عربى وقدرتهم جميعاً على تخبئة الأيدى تحت العباءات والمران اليومى على الصمم والعمى والبكم فيحنقه هذا لأبعد الحدود ولا يدرى ماذا يفعل وهو يرى الدوائر تضيق والمخططات الامبريالية تأخذ راحتها دون عوائق فيصرخ !!

كانه خارج لتوه من بين دفتى كتاب صدر فى الستينيات ، حفظ نصوصه عن ظهر قلب ويسعى بالحاح وحرقة إلى تحقيق وتطبيق تعاليمه . كأن العالم العربى مازال يقطن تلك الحقبة من حياة عبد الناصر . حين يبلغ به اليأس مبلغه يصرخ ويثور وينقلب غاضباً غَضِباً لا يختلف كثيراً عن غضب الشعراء !!

تركوه وشعبه يعاني الحصار اللوكيربى البغيض القاسى . اتجه الحكام الإفريقيون الذين اجتمعوا على اختراق الحصار ، اتجهوا إلى ليبيا مؤازرة ومساندة بينما غاصت "أمته" العربية فى موجات النسيان والتجاهل . حتى مصر التى يستند إليها حذت حذوهم . رتبت أوراقها وحسبت حساباتها المحلية

والدولية وقررت الالتزام بما اتفق عليه أو أمر به الكبار . فكان ينتظر طائراتها فى السماوات الليلية قبل الجميع ، لكن الطائرات لم تبرح مطاراتها بينما الطائرات الإفريقية تتقاطر على أسفلت المطارات الليلية . كل طائرة تحمل موقعها وأغراضها الخفية والمعلنة. بعضها حركتها مواقف حقيقية ، وبعضها أدار محرقاتها البحث عن المنافع ودفعت بها أزماتها ومصالحها ، وهو يعرف ويصمت إذ إنه لا يبحث إلا عن المؤازرة حتى لو كانت كرنفالية وضجيجية وشكلية بينما الطائرات العربية أقعدما جنبها وعدم الحاجة وتعهداتها للول المهيمنة والخوف من جر المتاعب على نفسها فطلت قابعة فى مطاراتها كالطيور الكسيحة التى أبطلت الريح أجنحتها دون أن تبرح أعشاشها !!

أحس الأخ العقيد كأن أمته تخونه . تتخلى عنه فى وقت هو أحوج ما يكون فيه للنضامن والوقفة . نظر حوله ليجد أنه على رأس قارة غير قارة العوب ، فصرخ صرخته وأعلن انتماءه لقارته السوداء وأعلن انفصاله عن آسيا ذات الأذرع القصيرة ، آسيا البعيدة التى لا تطالها يده ولا يصل إليها صوته ، فغير اسم محطته الإذاعية التى تحمل اسم صوت الوطن العربى إلى "صوت أفريقيا" وجلس ينتظر غضب أخوته فلم يغضب أحد ولم يحس بذلك الإجراء "الرهيب" أحد .

مات العالم العربى الذى يؤمن به القذافى ، هذا عالم عربى آخر مختلف تماما . ليس عالماً بل "عوالم" كل عالم مستقل عن الآخر . كل دولة كبرت أو صغرت إمبراطورية مكتفية بذاتها لها مواردها واقتصادها وسياستها وصحفها وتليفزيونها ومحطاتها الفضائية وأغراضها . نبذوا العالم القديم الذى مازال يعيش بصورته الغابرة فى رأس الثائر العربى الخارج من دفتى الكتاب القديم .

فجأة تحرشت تركيا بسوريا وأشعلت نيراناً وهددت وأرغت وأزبدت . وجد الأخ العقيد نفسه - مثلنا - غاضباً خائفاً مدركاً أبعاد اللعبة الصهيونية ورأى بعينه ما يعنيه ذلك من خطر عظيم . نسى إفريقيته المستحدثة وانتماءه الغض

ليطلق صيحته الناصرية "الاعتداء على سوريا اعتداء علينا" وجد نفسه يقفز خارج دائرة الغضب الذاتى المشتعلة ليعود عربياً مرة أخرى !!

إنه قدرنا أيها الأخ العقيد . درس فى الواقعية تعلمنا إياه الأيام والمفاجآت والمآزق . أمتنا سواء غضبت أو سررت ، شئت أم أبيت أمة لن تفيق إلا بعد أن تتحلل وتذبل وتصبح فى خبر كان . أمة تسهل الطريق أمام الغول الاستعماري ينتهبها ويذلها ويقوض أعمدتها ، وتسلم مصائرهما - منفردة - للعدو الإسرائيلي الذى لا يعرف النوم ولا يغفل عن مراقبتها ومحاصرتها واحتلالها واستنفاد قواها فى كل ساعة وفى كل لحظة . ماذا ستفعل أنت وجسدك متخن بالجراح؟ وماذا سنفعل نحن وقد تهالك البدن وتمزقت الأعضاء وهزم الفكر ، وأصبحت الفكرة مدعاة للسخرية ؟ ضع رجلاً فى هذه القارة ورجلاً فى القارة الأخرى إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً !!

العائلات !!

ملعونة كتب التاريخ ، وملاعين من كتبها ، حتى أكثر المؤرخين صدقا ونزاهة لا يمكن أن يتحاشى ارتكاب الجرائم ضد البشر الذين عاشوا فى زمنه ، أو تبرتة كثير من المجرمين واللصوص والفاستين وقتلة الفترات والنكوص بقوة الإنسان والارتداد بالأوطان إلى أغوار سحيفة مظلمة من التخلف !!

بيرى المؤرخ هؤلاء المجرمين حين لا يذكر أسماءهم اسما اسما وأفعالهم فعلا فعلا لنعرف كيف نشأت ما تسمى بالعائلات .

كيف اكتسب البعض أسماء عائلاتهم البراقة وكيف أطلق عليهم أنهم أولاد ناس وبنات ناس ، وكيف أتاح لهم إسم العائلة الذى استمد ألقه من دموع التعساء وعرق المقهورين المسروقين أن يسرقوا مرة أخرى فى الأزمنة المتعاقبة .

ذلك لأن الاسم الذى يمكن دائما استعماله فيما بعد ، قادر على ممارسة لصوصيته فى الفترات المقبلة بعد أن يغير أساليب السرقة تبعا لتطور المجتمعات وتغير السياسات .

إذا كان الزمن ثوريا لجا الاسم إلى الارتباط برموز هذه الثورة . يكمن أصحابه إلى أن يحين الحين فيقفزون على المنجزات التى ادَّعوا حمايتها ، بلى زجوا بنا فى السجون المظلمة وقطعوا أرزاقنا حين حاولنا مناقشة أسلوب الحماية . كانوا ثوريين أكثر منا . بل كانوا يدافعون عن منجزات الثورة فى مواجهة تربصاتنا المريبة؟

وإذا جاء زمن النهب والسلب انطلقوا قبل سماع صفارة الفساد . ذلك لأنهم يعلمون جيدا توقيتها الذى ساهموا فى إنضاجه .

أنت تجد أبناء وبنات العائلات سادة كل العصور ، عصور التقدم وعصور التخلف ، أو - على الأقل - هذا ما رأيناه وتأكدنا من صدق رؤيتنا له خلال العصرين : الصاعد والهابط !

يتبعون المراكز العليا . يتصدرون مواقع السلطة والمال والفكر . يديرون اتجاه البوصلة نحو اللحظة المنتظرة . حتى إذا أتت انطلقوا . ونتعجب نحن السذج حين نراهم على رأس القوائم الجديدة والكراسى الجديدة فى الأنظمة الجديدة ، بيض الوجوه ، صفر الشعر ، دهنيى البشرة ، يخفون لكنة البلاد القادمين منها إذ لا يستطيع أحدهم أن يثبت أنه مصرى . لكنهم - ليجاحتهم - يقللون من شأن مصريتنا نحن ويهمشون أديارنا . يحكمون فيسرقون وينهبون ، ويسهلون لعملائهم طرق السلب والنهب . ذلك لأنهم يعرفون أن المؤرخين يتجاهلون أسماء الفاسدين ، وأن الفترات تصاغ بأقلامهم فى ارتجالية تبرئ الفاسد من فساده إذ سوف يقول مؤرخ شريف عن مثل زماننا - غدا حين يكتب عنه - "وانتشرت الرشوة والفساد بشكل لا مثيل له" !.

يا فرحتى !! فقط هذا ؟ كل ما نراه ، كل ما نعانیه ، كل ما يقع شعبنا تحت وطأته ، كل هذه الطواوير من اللصوص النهابين السلابين المراوغين المخادعين الخاطفين لقمة الفقير وحليب الطفل وحذاء الحافى وجلباب الأرملة ؟ كل تلك المعاناة وعواصف الفاقة والتخلف التى تؤدى إليه سرقة ميزانيات خدمات البشر فى أوطاننا تتحول إلى هذين السطرين الأعجبيين : "وقد انتشرت الرشوة .. إلخ"؟

هذه المرأة النهمة على رأس الجهاز الخطير ، ذات المائة يد ، التى تزرع العملاء والسماسة فى الطرقات والردهات ، وعلى سلال المبنى الريب

وتستنزف خزنة المبنى وجيوب القادمين من بلادنا وبلاد غيرنا وتكسب بلادنا السمعة السيئة التى نحن براء منها .

ماذا سوف يقول عنها المؤرخون ؟ لا شىء . سوف تدخل فى زمرة "وانتشر الفساد بصورة ليس لها مثيل" وسوف يستمتع أبناؤها - لصوص الزمن القادم - بكل ثروة أهلينا التى نهبت ، وسوف يتسلطون على أبنائنا يمارسون نهب أهم السابق!!

ذلك المدير ، وذلك الحقيقير ، كل هؤلاء من ذوى الأيدي المدربة والوجوه الجامدة التى تخفى خلف أفئدة البراءة وجوها أخرى تكرهنا وتحققرنا دون شك . تستبلهنا وتتهبنا - عينى عينك - دون خوف منا أو من سلطة الدولة التى تحميهم وتجدد لهم سنوات أخرى فى العمل بعد أن أثبتوا كفاءة فى السرقة والنهب المنظم وقبض الإتاوات ، تنزلق الأموال إلى جيوبهم دون أن يمدوا أيديهم .

هؤلاء الذين خلُقوا للتسلط على أرزاقنا ومستقبل أطفالنا ، والذين يؤكدون لنا يوميا أننا لم نبرح عصر المماليك . آلات الفساد التى تسمم أجواء مصر . مصر الرائعة الشهيدة التى لم يكتب أحد - بعد - تاريخها المعاصر !!

اللعبة العصرية !!

قبلنا بفساد الرجال . رويدا رويدا استسلمنا أمام استسراء الظاهرة حين رأينا أصدقاءنا من الشرفاء يعاقبون كأنهم اللصوص ، بينما يمشى اللصوص فى خيلاء يتقدمهم من يفسح أمامهم الأماكن للمرور محاطين بالحفاوة والتقدير .

كنا نرفض أن نرشو أحدا (مسألة مبدأ) إلى أن اكتشفنا أننا الوحيدون وأنه بسبب ذلك تعطلت مصالحنا و"عصلجت" أوراقنا ولم نقبض إلا الترحيب الكاذب والابتسامات الزائفة!!

نصحنا أهل الخير بأن ثمة طرقا لبعث الحيوية فى أوراقنا الميتة . تولوا عنا هذا فسقطت أصنام الآلهة القديمة تتهاوى أمام عيوننا كالرمال . أمام عيوننا فقط بينما كانوا يواصلون صعودهم فى سرعة ومضة البرق!! دُفع بنا دفعا لنجرب . كانت أيدينا ترتعش ونحن نرشوهم وكأننا اللصوص بينما هم تتسع ابتساماتهم الفجة المشجعة بشيرون لعيوننا العمياء إلى أدراجهم المفتوحة كالبالوعات نشم رائحتها النتنة ولا يشمونها لأنهم يعيشون بينها . هى أوانى الرزق وصناديق النذور .

من حاول الإبلاغ عنهم تحطم . لفقوا له التهم . لفقوها وسبكوها . أحكموا الخيوط فعوقب وتأخر فى سباق سلمه الوظيفى ، ودفع صغاره الثمن ...!!

رأينا مئات الحالات بل وآلافها فهزمننا . رويدا رويدا استسلمنا أمام الفساد الذى أطفا رجولتهم ورجولتنا . قبلنا بفساد الرجال وعدنا نللم أذيال الهزيمة وقلنا عليه العوض ومنه العوض !!

أما الظاهرة الصاعدة فهي فساد النساء . لقد رأين ما حقق الرجال من مكاسب فأحسنن بالغيرة - والنساء غيورات كما نعلم - فصحونا لنرى المرأة المختلطة ، والمرأة المرتشية . فزعا من ذلك فهو الهول العظيم . كنا نقول إن المرأة المصرية هي حارسة الحضارة ووعاء القيم ومربية الأجيال فإذا بهذه الأخت وهذه الأم ترمى قناعات الحياء التاريخي وبرقع الخجل لتتجهب وتسرق وترتشي حتى لا تصبح نصف المجتمع المتخلف .

صار على بابها سماسرة ووسطاء ، يتلقون هدايا الذهب ، وإتاوات الماس ، والسجايد الفاخرة ذات الأنواع المحددة ، صارت أخطبوطا بألف ذراع ، تحرسه سلوة بأنياب . هي لا تقبض الرشوة في يدها إذ أن "حياءها" يمنعها من ذلك ، خاصة أنها من بنات العائلات . تطل على المجتمع لامعة الوجه نظيفة الملابس ، تغرق جسدها بالكولونيئات والبارفانات كي تخفى الرائحة ، والرائحة - كما أسلفنا - تزكم أنف الجميع عدا صاحبها !!.

يدور الكلام من خلف ظهرها . يسمعه الجميع عداها ، عن شراحتها للمال وجوعها للاغتنام ونهمها الذي لا يعرف الشبع . أما هي فتعصى تحول مؤسسة الدولة إلى عذبة تدر عليها ما يكفى لإدارة دولة . لكنها عملا بنصيحة شاعرنا الألمانى العظيم "برتولد بريخت" تخفى الآثار ، فالذى يساوم والذى يقبض هو الوسيط تحدد مهامه وتحكم وظيفته شروط قاسية واختبارات مريرة والذى تتحقق له بعض الفائدة من فئات ما يتخلف من مائدة صاحبة المقام الرفيع !!..

السرقعة تعلمك أول ما تعلمك التخلص من الوجوه الغريبة والعيون المريبة ومن لا يعرفون الطريق إلى الجنة الخفية . هؤلاء الجبناء الذين يدعون أنهم شرفاء!! إذا ما اشتتمت أو أهد وسطائها رائحة إنسان شريف ، فإن هناك طرقا ناجعة وأساليب مجربة بالإبعاد والتجسيم والإقلال من الشأن والاستهانة والدفع به إلى الهامشية لتقريب البارعين الذين يحسن استعمالهم فى ممارسة اللعبة فى الخفاء !!.

هكذا ، لم يعد من المستغرب أن ترى ناهبة البنوك الهاربة المختفية عن وجه العدالة ، وسارقة الأرض ، وبائعة المؤسسة التي تزدهم أدراج الرقابة الإدارية بمستندات إدانتها وفصائحها العلنية والخفية يمثلن طرعا جديفاً فى الحقل الأخلاقى المصرى الأصيل ، هن من ثمار عصرنا الحديث !!.

وإذا ما تذكر المرئى رشوته ولو للحظة ، مجرد تذكر ، حتى وإن لم ينبس بكلمة ، أو يوحى إلى أحد بذلك ، خسفوا به الأرض ، وطرد خارج الجنة - التى تقوم خدمتها العامة على خصوصية المصالح - وأغلقت فى وجهه أبواب النعيم ، فغيره واقف على الباب فى الطابور ، وهو مستعد أن يدفع "خلو الرجل" فى المكان الذى خلا ، أضعاف ما كان يدفع السابق ، وسوف يلتزم بأصول اللعبة "اضرب المربوط يخاف السايب" !!!..

إنه عصر جديد ، خرجت فيه المرأة من شرنقة دورها المتخلف لتمارس اللعبة العصرية التى كانت مقصورة على الرجل . لم يكلفها ذلك سوى الاستغناء عن خجلها وحيائها الميراثى ، وإقامة شبكة من السماسرة من ذوى الكرافات الثمينة والوسيطات من ذوات الأيدي المعروقة اللاتى تجدن إخفاء ما تقبضن عليه ، بحنكة وخبرة لا يملكها أعتى الرجال الفاسدين فى بلادنا الرائعة وزماننا الأروع !!

الخط الأحمر !!

نهاجم الفساد كثيرا دون أن نتوصل إلى توصيف حقيقى للفساد . أو تعريف محدد يجعلنا - نحن والدولة - نتكلم لغة واحدة ويفهم أحدنا الآخر حين نتحدث عن الفساد !!

نحن ندعى أن هناك فسادا وتصر الدولة على أنه لا يوجد فساد وأن هذا مصطلح من اختراعنا لأن هذه دولة تقوم أساسا على نظافة اليد ولأن المنحرف - دائما - ينال عقابه . لذلك فلا شك أننا نتحدث عن أمرين مختلفين ، ولا شك أن ما نعنيه بالفساد غير ما تعنيه الدولة تماما ، بل ربما نحن نتحدث فى حوارنا - غير العادل - عن نقيضين !!

نحن شعب شكّاك . نعتبر أن أى سلوك يجافى منطق المصلحة العامة من وجهة نظرنا يخفى شيئا مربيا إسمه الفساد . له منطقه وطرائق التعامل معه على غير الصورة التى خدعتنا بها القوانين أو ما يسمى بالدستور والذى لا يعرف عنه أهاليها فى القرى غير إسمه !!

خبرة مصرية قديمة كافأنا بها المماليك والترك غفر الله لهم منذ علمونا أن ندفع لهم بدجاجاتنا وماشيتنا وحجول زوجاتنا الفضية كى لا يصادروا أرضنا أو يجرؤا أبناءنا إلى التراحيل أو السلطة أو الجهادية حيث لا يعودون ولا نراهم أحياء ولا أمواتا مرة أخرى !!

فى كل سنتيمتر مربع يلتقى المواطن بهذه المعضلة التى ليس لها حل ، فيذهب ليتدبر أمره "ويمشئ حاله" . الدستور والقانون والجريدة والتلفزيون

والكتاب والصحفيون يقولون شيئا غير ما يتم فى الواقع . المسافة بين القول والفعل ، الإدعاء والحقيقة ، هو ما نطلق عليه (الفساد) !!

الفساد حقيقة أخلاقية واجتماعية وسياسية وفنية وإدارية بل وأحيانا تتخذ صورا دينية . الخروج من كل قوالب المكتوب على الأوراق للدائر على أرض الحقيقة يشكل فسادا . لا أظن أن ثمة أملا أو سبيلا لإيقافه مهما خلصت النوايا ومهما نظفت يد الدولة إذ أن هناك دولة فوق ودولة تحت !!

من السهل أن نكشف أمريكا وأن نفضح إسرائيل ، وأن نكتب عن كل مسا هو بعيد عن السلطة بل وأن نتهم أى غريب بإفسادنا . على هذا يعيش الكتبة والجورنالجية وكل من يتعامل مع الكلمة . أما أن نتعامل مع الحقائق فمعنى ذلك أننا سوف نجتاز الخط الأحمر الفاصل بين الرقاب والأجساد . بين حياة وحياة . نرمى على قارعة النهر ويعيش أولادنا عمرا لا نتمناه لأطفالنا ولا حتى لأطفال المفسدين .

لا أعنى هؤلاء الذين يسرقون أموال البنوك ويهربون ، ولا شركاءهم الذين يفتسمون معهم أموال البلد "المديون" ولا أعنى نهب أراضينا وبناء الهياكل الأسمنتية وبيعها لمن يقدر ، ولا المقاولات وصفقات الطعام المريبة .. ولا..

كل هذه أشياء لا يستوعبها شعبنا فى القاع ولا يستمع إلينا حين نخاطبه فى ذلك. لكن الفساد كالقروء يقلد بعضه بعضا حتى يصل إلى الحفاة العراة فى صوره اليومية التفصيلية الفريدة التى تصلح للعروض المسرحية الغرائبية !!

هنا يفهم الشعب الأسمى أن الأمور ليست على ما يرام . من سلوكه اليومى مع الوقائع وسلوك المواقع معه يدرك ويفقد تعاطفه ويتذكر ما فعل به السترك والمماليك ويعرف أنه لم يبرح مكانه القديم فى لعبة العدالة !!

يصبح الفساد كونا . منهج حياة . وسيلة للتعايش مع عالم ليس عالمك وحياة يقبض عليها الآخرون .

لو أفصح كل سننيمتر مربع عما يضح به من فساد لألقينا بأقلامنا وهجرنا
منابرنا إن كانت لنا منابر !!

وهكذا نطل والدولة مختلفين حول تعريف الفساد ، نفهمه بمنهج ونفهمه
بمنهج مغاير تماما !!!.

ممنوع العقاب !!

لا نستطيع أن نعاقب - بكسر القاف - لأننا لا نحب أن نعاقب بفتح القاف !!.

فى بلاد كبلادنا الحبيبة تتلون قضية الثواب والعقاب بألف لون . يتداخلان ويحتل كل منهما محل الآخر . يرتدى ملابسه ويحكم جيك الأقفعة . ذلك لأننا نلتزم التزاما مطلقا بالقانون الإنسانى الأبدى : "من كان منكم بلا خطيئة.." .

إن انجراح القدوة ينسف الأسوة ويحول المجتمع بأكمله ما فوق سطح السلة وما فى وسطها إلى آخر قاع القاع إلى مجتمع فاسد تباع فيه الأغراض ليتأكد القانون الآخر عن السمكة التى تفسد من الرأس !!.

التلميذ فى الفصل الدراسى لا يستوحش ولا يلعب دور المعلم ولا يتجاوز دوره كتلميذ إلا إذا ما كان - هو أو أمه أو أبوه - قد كسر عين المعلم حين ناوله فى البيت ثمن حصص الدروس الخصوصية !!.

أفقد التلميذ أستاذه بكارته - فض حياهه وكشف عن عوراته ، فبأى صوت وأية عين وكيف يواجهه هذا المعلم وكيف يسكته ؟

المدرس المكسور كيف يجرو على رفع عينه فى وجه تلميذه الصغير أو تخزيق عينيه؟ إن هذا يتطلب قدرا من النقاء فقد هذا المعلم على عتبة باب هذا التلميذ خارج حرمة المدرسة ؟

رئيسة "المصلحة" التى ترثى وتتقبل الهدايا - أى تسرق - والتى صارت لها سمعة كالطبل ، كيف تجرو على رفع عينها أمام عيون لصوصها الصغار

أو معاقبتهم على ما تفعل هي وصبياتها المدربون؟ الأسهل لها - طبعاً - أن تنفى وجود هؤلاء اللصوص أصلاً .. تتعاضى .. تتعاضى .. تتباله .. لا توجه لهم ملحوظة أو حتى إشارة فصغار اللصوص لا يأكلونها بمفردهم وإلا ما سُمح لهم أن يكونوا لصوصاً منذ البداية . فى الهيئات والمؤسسات الكبرى لا تستطيع أن تصبح لصاً إلا إذا استأذنت . إلا إذا سُمح لك بالسرقة وفق النظم المعروفة . السيدة "رئيسة المصلحة" يجب أن تغض الطرف متعمدة وإلا ارتفعت أصوات الصغار بالحقائق التى يعرفونها جيداً ويستظنون بها لممارسة فسادهم الصغير الذى هو مجرد ظل للفساد الكبير !! يجب على الرئيسة أن تنكر وجودهم وإلا استطالت أصابعهم مشيرة إلى ما لا يحتاج إلى إشارة .

تستطيل الأصابع والألسنة لتخترق عين الرئيسة التى استسهلت اللقمة الحرام واكتنزت السحت هي والمساعدون والمساعدات واللاتى ينظفن لها المكان ويستقبلن الزبائن ويكفين على الأسرار مواجير ومواجير !!

"شيخ المنصر" المتربع كتمثال فى قاعات الوزارات والمؤسسات ، الشره الذى لا يشبع ، والذى بيده الحل والربط ، ألا يساعده لصوص أصغر يسبحون بحمده ويحسّون صورته ويعددون مناقبه ويحولون أفعاله الدنيئة إلى مآثر وإنجازات وعفن سلوكه إلى عطر سيرة وأريج شرف؟ هل يستطيع "شيخ المنصر" هذا أن يعاقب لصاً صغيراً يعمل تحت يده أو يد غيره ؟ هل يستطيع "البلائة" رئيسة المصلحة معاقبة لص صغير مازال يتمرن على أعتاب الانحراف والاحتراف؟ ألن يصرخ بالحقائق المفزعة دفاعاً عن نفسه؟؟!!

من هنا ندر العقاب فى مصر وكسده سوقه وبارت فنونه ، ذلك لأن الذى يعاقب يجب أن يكون طاهر الذيل نظيف اليد شريفاً عفيفاً نظيفاً ، لم تمتد يده إلى حرام ، ولا يربعه أن ينكشف ستره فى يوم من الأيام . هذا الأنموذج من البشر أو من الموظفين صار عملة نادرة .

الفساد عم يا عم ، فكيف أحاسبك على ما صار هو السلوك العادى ككلمة
"صباح الخير" وقضم لقمة الخبز ؟..

لو كان مازال ثمة عقاب وثمة من يعاقب ، لما نهبت البنوك أو انهارت
المؤسسات أو سرق المال العام أو بيع القطاع الذى بنينا من لحمنا وقوت
أطفالنا واختفى ثمنه ، ولما دب الفساد فى العباد ، وانتهت تجارة الشرف وحب
الوطن إلى كساد !!

أصبحت السرقة عينى عينك ، والرشوة صارت أسهل من شرب الماء .
وجب التخلص من الإنسان الشريف لأنه عين على اللصوص . أصبح يُلقَى به
فى سبيل العنكبوت كلما حاول التخلص تخبط والتفت حوله الخيوط . وأخيرا
حين ينجو - إن نجا - يكون اللص واللصة قد هربا بالغنيمة . امتصا دماء
شعبنا المكافح . دراكولات عصرنا الحديث . نهبا للنهيبة ووقفنا فى حفل
التكريم أمام الكاميرات يوزعان الابتسامات . ليس من أثر للدماء على الأنيلب
أو الشفاه التى طمسها أصبع الروح !!.

احتقال ببلوغ نهاية المارثون بنجاح ، دون القبض على أحد ، أو محاكمة أو
رقابة إدارية . أو أية هيئة رقابية . أو حتى قسم بوليس !!.. الله .. يا له من
وطن جميل نعيش فيه بحرية ليست لها حدود ، لدرجة أننا إذا نقضنا جيوب
الوطن من قروشه لا يسألنا أحد !!

هل تستطيع عين أن تُخجل عينا وقد سمل الفساد عيون الجميع ؟.

وطن بالإيجار

كلهم يتحزبون الآن لأوطانهم الصغيرة ويؤلفون لها تواريخ ومواضيع
ويشككون فى أحقية مصر بالموقع الذى تتبوأه . صاحب الوطن الذى لا يزيد
عمره على نصف قرن يباهى بالموقع والأهل والقادة والثقافة والتاريخ مناطقها
السبعة آلاف عام فى غرور وتبجح لا سبيل لكبحهما .

صاحب الوطن الصغير الذى لا يزيد على مدينة وجبل وضع نصب عينيه
مهمة تحطيم الأصنام القديمة ، فصوب مدافعه نحو مصر : لهجة وصحفا
ونساء وفشائيات ، يشكك فى أدبنا وأدبائنا ويحاول قتل روائيينا وشعرائنا دون
أن يخلق البديل إذ لا يقتل الشاعر سوى شاعر أكثر شاعرية وتميزا ولا يكتف
صوت القصائد سوى قاص أكثر حرفة وأغنى تجربة وأكثر إنسانية !!

الجميع متمسك ببلده صغر أو كبر . الجميع يقاتل من أجل القيادة والوقوف
فى الصف الأول ما عدا أهل الصف الأول - نحن - !!

كان المصرى رمزاً للانتماء وأ نموذجاً للارتباط بالأرض والنيل والخريطة
الجميلة المشهورة ذات الدلتا والوادي . أفلح الفالكون فى أن يضغطوا على
رقبته وقلبه حتى تراخت قبضته فأفلتت . تحقق الانفصال بينه وبين قبضة
التراب فى هذا العصر الذهبى الذى يرى أن الانتماء الإقليمية ضيقة وأننا يجب
أن ننتفخ على العالم بكل ما نملك وبأقصى سرعة وأن تلقى بكل تلك
الموروثات التى أورثتنا الخلف والكساح .

تراخت القبضة . فقد الوجه سمرته . تباعد الجسدان جسده وجسدها . فقد
النشيد حرارة الصدق واختفت الراية المميزة فى ألوف الرايات !!

المصرى الذى اخترع الانتماء كما اخترع الصبر ، وعرف الحب الوطنى ونبه إليه الوجود ، أصبح وكأنه يسكن وطناً "مفروشا" يعيش فيه بالايجاز . وطننا سوف يغادره بعد شهر أو شهرين أو عام على الأكثر . أصبحت علاقته بمصر كعلاقته بمحطة القطار ، تكمن أهميتها فى أنه سوف يغادرها بعد قليل . لا يهمه كثيراً أن ينظر من حوله إلى التغيرات والتبدلات التى طرأت على الوطن الذى فقد صلته الحقيقية به !! وطننا لم يعد يهمه كثيراً أن تتسخ جدرانه أو تتخلع أرضياته الخشبية أو أن تتطفئ لمبات إضاءته أو يفسد سيفون محل الأدب فتضرب الرائحة الخبيثة فى جنباته وكامل أرجائه . وطننا لا تمتد يداه لإصلاح أعطابه وتعمير خرابه لأنه ليس وطنه فى الواقع أو حتى فى الحلم ولا يملك فيه إلا حق البقاء المؤقت ، يدفع دم قلبه نظير استعماله ، نظير النوم وقضاء الحاجة فقط !!

ليتناول على مصر المتناولون . لم يعد المصرى يزعجه ذلك إذ أن الاهتمام يكون - عادة - على قدر الأهمية . من كثرة ما فقد الفالحون اهتمامهم بنا فقدنا - شيئاً فشيئاً - اهتمامنا بهم . لم تكن ندرى أننا فى نفس الوقت نفقد الاهتمام بأعز ما نملك - حب الوطن - !!

الذين أبطلوا فينا الانتماء يتباكون عليه . ينعون عدم الاهتمام بنظافة الوطن كى لا تزعجهم روائحنا ، يكون الهدوء المفقود ليناموا فى هدوء ليستيقظوا أقوياء يواصلون تدبير مكيدة المستقبل لنا ولأطفالنا .

يركبون فاره السيارات ويسكنون فاخر الفيلات ويحتلون نائى الشواطئ بعيدا عن المصرى الأصلى الذى لم يعد يجد شيئاً ينتمى إليه بعد أن نهب الفالحون كل شيء .

شيئاً فشيئاً - سقط الإيمان بالوطن (اخفض رأسك يا أخى فقد أتى عهد الـ...). عدنا نتسول من جديد . عدنا نقول : يا باشا ، وبيا بيه ونقبل الأيدى كأننا تماماً قبل الثورة !!

لم تعد مصر مصرك أو مصرى بل مصر من يمتلكها . ملك المال الذى اندفع كالطوفان مغرقاً فى طريقه الانتماء القديم والطبقات الفقيرة مكتسحاً ما كان يسمى بالطبقة الوسطى لا يسمح بالحياة فيها إلا بالشرائح العليا الهابطة من الجو ، ومن حاول أن يرفع ناظريه من فقرائنا - لمجرد النظر - كسرت رقبتة !!

اندلع اللصوص فى علنية مشرقة يكرسون أخلاقاً جديدة ومبادئ مستوردة تجتاح كل قيمة القديمة البالية كالانتماء والأصالة والـ ..

لم يعد المصرى يئن أو يشكو . صار ما يقوله غيره أقل بكثير مما يقوله لنفسه. لم يعد يشكو إذ لم تعد الشكوى مرقى لحالة أفضل وقد جرب وأيقن !!

شرب الكبار مقلب وطنيتهم القديمة وخرج الصغار للدنيا فى ظل أشجار أخرى للوطنية تطرح فاكهة محرمة . مات الوطن القديم . غرق زعماءه الأفاضل وانحسروا بين كراكيب الذاكرة الحديثة . بهتت وجوه صورهم على جدران التاريخ. رثت الطرايبش وتآكلت فوق رؤوسهم : عرابى وسعد ومصطفى كامل وفريد والنحاس ، رمدت العيون وارتخت الشوارب !!

الجميع الآن يدعى المصرية : البائعون والشارون ، المقيمون والقادمون ، وبين هذا وذاك ضللنا الطريق إليها وضلت طريقها إلينا . أفلحوا فى أن تستشكل علينا أسماؤنا وأماكننا وتواريخنا والمعانى التى سلمها الأجداد للأحفاد .

تشتت مصر . تسب فى كافة أرجاء الوطن الكبير من المحيط إلى الخليج من الأصدقاء قبل الأعداء كأنهم جميعاً على اتفاق ، وكأننا جميعاً على اتفاق أيضاً على ألا ندافع عن وطن نسكن فيه بالإيجار !!

المطاردة !!

قلت لصديقي الفلاح الفقير - الذى زارنى خلسة وهو يتلفت حواليه : أين أنت يا رجل ؟ ثلاثة أشهر وأنا أدق بابك وأترك لك الرسائل مع المراسيل والأهل والجيران . هل قاطعتنى ؟ هل فعلت بك سوءا ؟ أين كنت ؟

أجاب : "هارب ، البوليس يطاردنى ، ليس للدولة عمل أهم من ملاحقتى ليل نهار ، أنام فى الحقول ، فى البرد والشرد . أنام كالثعالب بنصف عين ، تطاردنى الوحوش والهوام والناموس والبراغيث ، نسيت الطريق إلى دارى" . قلت - منزعا - : "ولم كل ذلك هل هارب من ثأر؟" قال : "نعم" سألته بفزع : "قتلت من؟" قال وهو يتلفت خلفه وفوقه وتحتة : "قتلت الدولة" !!

رفض احتساء الشاي متعللا بضيق الوقت وعدم الثقة به : "قد يأتون فى أية لحظة فهم يعرفون أى صديقك" . سألته - بفزع - ما الحكاية بالضبط ؟ قال : "إعلم أننى لست وحدى فى هذه الحالة . كل رجال القرية يهيمون ليلا ونهاراً على وجوههم مفلسين جائعين مطاردين يتحدثون بالإشارات والعيون . أصبحت لنا لغة سرية وهبنا إياها الرعب وضيق ذات اليد والمطاردة . لا نربى أولادنا . لا ننام مع سبجارة تدل علينا أهل القتل يتربصون بنا ، من يقع منا فى أيديهم عليه العوض ومنه العوض . صاحب الثأر ذو سطوة وهيلمان وجبروت . قلبه لا يعرف الرحمة . ليس مصريا مثلنا لكنه على رأى شاعركم صلاح جاهين :

(تركى بجم :

سكر .. انسجم

اتغاظ .. هجم (!!)

قلت : "من قتلتم؟" قال : "مالنا وأرضنا .." قلت : "يا رجل ، دعك من الألباز وحدثنى بحديث مفهوم" قال : "وهل عاد شىء مفهوم فى هذه الدنيا؟" ثم تأوه ونظر نحو السماء هاتفاً : "الله يجازيك يا عم عبد الناصر!!" لم أفهم فسألته : "عبد الناصر من؟" قال - متعجباً من غبائى "الرئيس عبد الناصر . هو الذى علمنا الثقة فى الحكومة التى لم يثق فيها أبائنا ولا أجدادنا ولا أجداد أجدادنا . أدفاً صدورنا بكلماته فخرجنا من جحورنا لأول مرة فى أعمارنا . لقد وهبتنا مصر حاكماً يملك قلباً يحبنا ، الجمعية التعاونية ، البنوك التعاونية . التجميع الزراعى . الـ .. الـ ..

هكذا سارت الحياة بنا ومعنا . لأول مرة ينكمش شر الأزمنة ويختفى لؤم الأيام فأصبنا بداء الثقة فى أنفسنا وتصديق المستقبل . سرعان ما مات لأننا وشَّ فقر وجاء الآخرون ولم يكن نزرع الثقة بالزمان سهلاً كاكْتسابها فوقنا فى أيديهم فريسة عمياء وصيداً سهلاً . حولوا التعاون إلى ائتمان ، ورفعوا كلمة "التعاونية" من على كل لافتة الجمعية فصارت زراعية فقط ونصبوا الفخاخ ، وكنا عميانا !!.

كلمونا عن "الأساليب العتيقة" التى ورثناها . حاضرونا فى "إنتاجية الفدان" كلمونا عن محاصيل الصيف التى يمكن أن تكون شتائية وثمار الشتاء التى تتضج صيفاً . سخروا من خبرتنا القديمة المتوارثة وأرونا "الصُّوب" تلك الكلمة التى طاردتنا وشردتنا كما فعلت بنا إسرائيل . تفزعنى فى النوم وتشرذنى فى النهار كأنى لص أو قاطع طريق أو أتاجر فى المخدرات . هكذا نصبوا - هم - لنا الصُّوب على الأرض بضمن الأرض . بعنا ما نملك لادخال الأساليب الحديثة . دخلوا فى تفاصيل أيامنا وسكنوا بيوتنا يطفحون الشاى ويملأن أكياسهم بما نقوت به العيال ، فشلت المحاصيل إذ أنهم كانوا

مثلنا - دقة قديمة - اكتشفنا أن من يخدعنا وينصب لنا الصوب له عمولة مجزية .

قامت رياح الخماسين لتمزق بلاستيك الصوب وتقلتها وتطيرها إلى حقول الآخرين . صوبى تطير إلى حقول فلان ، وصوبك تستقر فى حقلى . جئنا نضحك ونحن نبكى ، ونبكى ونحن نضحك .

بطريقة شيطانية ارتفعت الأربعة آلاف جنيه - السلقة - إلى سبعة عشر ألفا والسبعة عشرة إلى أربعين ألفا ، ووقفت لنا الدولة واضعة يديها فى وسطها بعد أن اختفى ودّها المصنوع مطالبة بمال لا يطاوله ثمن الأرض نفسها . حتى من باع الأرض ليسدد ، مطاردا مثلنا ببقية ما عليه !! . خلق الوضع سماسرة جددًا يتسللون إلى بيوتنا قائلين للنساء : دعوهم يسددوا ألفين للبنك وسنعيد لهم الجدولة فنغفهم من الدفع عامين فى نظير ألفين يسقطان فى الجيوب بعيدا عن خزينة البنك . فعلنا هكذا . صارت الأربعة آلاف خمسة وثلاثين وحين أتم حوارى معك سوف تصبح أربعين .

جاء البنك بالبوليس والنيابة وكل الأجهزة المفزعة وسلموا أوراقنا إلى الهيئة الجديدة الهبة "هيئة تنفيذ الأحكام" . هيئة جديدة تريد أن تثبت شخصيتها وأحقية ظهورها على "وش الدنيا" تقتحم بيوتنا ، وتعقل أطفالنا ، تطاردنا فى الخلاء وتحت الأشجار ، وتحرمنا الأمان والإحساس بالمواطنة . لقد طردتنا إسرائيل من شط القناة لكنها سمحت لنا بالحياة فى المدن الأخرى .

أما العدو الجديد فهو يزحف وراءك ويستلك من ردم أمك . نحن فى زمن العثمانيين والمماليك . مات عبد الناصر بعد أن سلّمنا لهم . جعلنا نصدق أسطورة العمال والفلاحين وتركنا فى منتصف الطريق عراة حفاة مطاردين بلا وطن ولا أهل .

خشخش صوت فى شجرة قريبة فانطلق "محمد مصطفى" الفلاح فزعًا مهرولا وقد نسى فى هلهه أن يترك كوب الشاي الذى ركض وهو فى يده !!

إنها مصر !!

مكالمات عديدة تلقيتها من مدن وقرى الشمال والجنوب بعد نشرى العمود الذى أسميته المطارد . تحايا حارة وتحريض على مواصلة الكتابة فى هذا الموضوع . ومعلومات رهيبية عن هذا البنك الذى أفرغ القرى من رجالها ودفع بهم إلى البحث عن ملجأ فى عزاء الحقول وبرد العراء شتاء والإحتماء بلهيب الشمس . قالوا إن هذا البنك بطاردهم وأنه يعكس حقيقة العلاقة بين الدولة والفلاحين . وأن فوائد قروضه تتراوح ما بين ثلاثة عشرة فى المائة وثمانى عشرة وأن الديون تتراكم بطريقة شيطانية . قالوا إن الكتاب منجذبون إلى الكتابة فى الأمور العالمية والقومية وإنهم لا ينظرون تحت أرجلهم لسيروا مأساتنا : مأساة الفلاح المصرى .

العجيب فى الأمر أن أحداً من أصدقائى أو الذين تستهويهم كلماتى لم يشر إلى المقال بكلمة وكدت أصاب بالإحباط والإحساس بالخيبة لولا تلك المهاتفات التى جاءتنى من عمق الريف والمدن البعيدة .

صاح أحدهم : "أيها الرجل ، أنت تعرفنا . لماذا تكتب عن العراق وفلسطين وغيرهما ؟ غيرك يكتب عنها . بل إنها الموضوع الرئيسى لجريدتك . لماذا لا تطالب الحكومة بنشر إحصائية عن الفلاحين الذين تطاردهم بنوك الائتمان الزراعى فى مصر ونسبتهم إلى جل فلاحى مصر؟.. كيف نقوم لاقتصادكم قائمة إذا ما تخلصتم منا وقذفتم بنا خارج برواز "الصورة" ؟

قل لإخوانكم الكتاب الذين يهربون إلى الكتابة الدولية والعربية أن السوس ينخر في الجذر الذى يربط الفلاح المصرى - الخالد كما تدعون - بالأرض الطيبة !!.

لقد حفظنا كل ما تكتبون عن الأمة العربية فمتى تحفظون مأساة الأمة المصرية أقدم الأمم؟ منذ متى لم تكتبوا دراسة جادة عن الفلاح المصرى ووسائل الإنتاج والرحلة العبثية لهذا الإنتاج؟

لقد قذفنا بكم إلى المدن لتعبروا عنا فماذا دهاكم ؟ سرقتمك المدن منا ونحت بكم أنحاء عجيبه . حولت اهتماماتكم بنا . سلحتكم باهتمامات زاهية للون براقه الألق تحسون فى أثناء الكتابة عنها بعظمة زائفة وأوضاع متميزة فى عالمكم الضيق .

إن الكتابة عن هموم البلدان الأخرى لا تعرضكم للمساءلة ولكن للتعبير عن همومنا ثمنا !!!.

كانت بعض المكالمات حادة - على قدر العشم - ولكنها كانت حقيقة وموجعة - على قدر الألم - نسوة ورجال . أصوات هادئة وأصوات خشنة تدوس على جروحها أمام مرأى السمع كى تحفزنى على المواصلة . لم أفعل أكثر من أن أطالبهم بالكتابة لى فى الأمر فأنا جاهل فى أمورهم مثل غيرى ، ولولا ذلك الفلاح الذى قذف أمامى بالكلمات وهرب لما عرفت أو قلت !!.

تأملت الحال . ليس حالهم بل حالنا . لم تعد تخيفنا الكتابة فى هذا العصر . لم تعد الكلمة طريقا ممهدا إلى السجن . تغير نوع العقاب . كانوا إذا سمعوك تصرخ نيابة عن الفلاحين صرخوا : "شيوخى" . تدفع ثمن ذلك شهورا أو سنين من الحبس لا يعلم عنها الفلاحون شيئا . أما الآن فيكفى عقابا أن يقال

عنك "تقيل الظل" فتطوحك قفا كف خارج دوائر الضوء . أو يهتف بإسمك
بطريقة معينة مع تضيق حدقات العينين :

"آه .. فلان؟" فتمتتع كل الأجهزة التى صارت "دولا مستقلة" تتبع الدولة فى
العلن وتستقل عنها فى الخفاء عن التعامل معك . يكتشف اللص أنك اكتشفته أو
كشفته فيكيل لك الضربات فى الظلام ويطعنك من عدة جهات . حصار يمارس
نفس وظيفة السجن القديم !!!..

إنها مصر غير المجتمعة على قلب رجل واحد . مصر الممزقة بالمحليات
والقيادات الصغيرة تنتهب ميراث الماضى وتأكلى فى ولع وتلذذ لحم الضمير
وأمن المصير !!..

نحشو الأوراق بالخطب النارية والدولة بعيدة بعيدة لا تسمع ولا تريد .
أصبحت زعيمة فى التجاهل متخصصة فى الرد بالصمت . عبقرية فى ازدراء
الكلمات الصادقة .

تعلمنا يوميا لعبة تضخيم الذات . تطعمنا فى كل وجبة أن القرد محور
الوجود وما عداه باطل . لم نعد نعرف أين ذهب عمالنا . جيش القطاع العام
الذين قطعوا لسانه وأجبروه على طلب المعاش المبكر . أين ذهب فنينا
والفنانون الذين شقينا جوعا ليشبوا موهوبين . أمل المستقبل وخبرة الأمة
الصاعدة .

باعدوا بيننا وبين شعبنا الذى تفرق فى فلوات البيع والشراء والمزايدة
والمقايضة فاستشكلت علينا أمور وطننا فتهنا عنه وتاه عنا . تفرغ لهم
وتفرغنا لموضوعات الإنشاء !!!..

كانت المكالمات القادمة من بعيد تعرف ذلك جيدا وتؤكد عليه . أما نحن
وقد صارت قلوبنا معهم ووعينا مخطوفا إلى مناطق نائية فقد أصبحنا نسمع
أنين الغرباء ونهرب بقصد أو بدونه عن صراخ أهلنا ومعاناتهم . أهلنا الذين
خلقوا الحضارة ولونوا وجه مصر والدنيا يقاتلون الطوب ويسفون التراب ولا
نرى من ذلك ضلا أو إشارة .

نسرح ببضاعتنا البائرة في قلب المدن ، فالقرى لا تستهلك سلعا ، تماما
كنتك السلع التي يعلن عنها تليفزيوننا الذكي والتي يتعجل بها حرائق طبقة قد
لا تبقى ولا تذر . وقعنا في نفس الفخ. بعنا قضايا شعبنا التافهة بقضايا أعظم
وأهم ، فكان الإعلام المقصود به تغييب أهاليينا قد غيبنا نحن أيضا !!.

الكلاب القديمة !!

قامت دعوة عامة لإبادة الكلاب . حملها وبشر بها أعضاء الاتحاد الاشتراكي خوفا من سعارها وتحولها إلى وحوش !!

شرح أحدهم الأمر للبقية الباقية من السكان الذين رفضوا الهجرة وقرروا الموت على أرضهم . لن أنسى شرحه البليغ حين قال :

"لا يعرف أحد كلابنا مثلنا . إنها ليست كلابا بل مخلوقات آمنة وديعة تخرج إلى الحياة فتجد نفسها تسكن بيتا . تعرف أن مهمتها أن تنتج بسبب أو بغير سبب - فى الفاضية والمليانة - نظير إلقاء بعض كسر الخبز إليها ، أو العظام المتبقية من الطعام إذا كان البيت الذى تقطنه طابخا !! ماذا ستفعل الآن ؟ ليس أمامها إلا أن تتسعر ، لابد من إبادتها" !!

كنت هناك حين أمرت الحكومة الناس بالهجرة إلى أماكن آمنة . وفرت لهم أرضا ومساكن جيدة فى "قرى أبيس" بجوار الاسكندرية وفى "سمالوط" ومناطق أخرى . من هذا الجانب يعتبر فلاحو السويس أكثر المهجرين حظا . لكن الأسر - القليلة - التى رفضت الهجرة رفضت أيضا قضية إبادة الكلاب !!

استيقظت الكلاب يوما لتجد "الوارى" تحمل أثاث البيوت والمواشى والطيور والبشر وحتى أبواب وشبابيك الدور . لم تترك خلفها شيئا ولا أحدا

سوى الكلاب التى علت الدهشة وجوها وظلت فاعرة أفواها تنظر إلى
المشهد فى بلاهة وعدم استيعاب !!

فى ظرف يومين وجدت الكلاب التى رتبت حياتها على "النبحه والكسرة"
بلا بشر . لم يعد هذا كلب فلان وذاك كلب فلانة . لم يعد هناك فلان ولا
فلانة! اجتمعت الكلاب تلقائيا تدور حول بعضها البعض فى حزن وفزع
وحيرة تلمحها فى عيونها . كفت عن النباح إذ لم يعد من تنبح من أجلهم أو
تنافقهم لتثبت أنها تستحق الوظيفة .

الكلاب لا تعرف شيئا عن التناقض بين الشعوب والاستعمار . لا تفهم شيئا
فى قضية الصهيونية . لا تعرف أن اليهود احتلوا الضفة الشرقية للقناة ،
وبالتالى لم تستوعب قضية هجرة البشر ، ولم تكن بالطبع تعرف أن "عبد
الناصر" قرر بدء حرب الاستنزاف استعدادا لخلق الفرصة لزرع الأمل فى
ضمانر الشعب المصرى من جديد وبناء الجيش ، وأغلب الظن أيضا أنها لم
تكن تعرف أنها كلاب مصرية تخدم عند مصريين .

لم تحس بهزيمة جيشنا فى ١٩٦٧ ، وحين رأت الدور تفتح للجرحى
والمنهكين ذوى الأقدام المتورمة العائدين سيرا على الأقدام عبر سيناء يحملون
جراحهم ويجرجرون بقايا أجسادهم المنهكة نبحت - كما هو متفق - وصمتت
حين رأت طشوت الماء بالملح للأقدام المتورمة ، وأباريق الشاى الكبيرة
واللقيمات . فكرت الكلاب أن العائدين أقارب لأهل الدور فاستكانت للصمت
والرقاد فى الظل حتى رحل القادمون إلى وحداتهم . ثم بعد ذلك حدثت واقعة
التهجير . نعم كانت أياما مختلفة عما سبقها . تتغير مشاهدنا يوميا . لكنها لم
تكن تتخيل اختفاء البشر فجأة!!

كلما اجتمع رجال الاتحاد الاشتراكي ببقية السكان لمناقشة قضية الكلاب ،
اجتمعت جيوش الكلاب لمناقشة قضية اختفاء البشر !!

كانت الأحوال قد أصبحت متواضعة على طول شط القناة . لا أسواق ولا
بيع ولا شراء ولا بشر . لا بذور ولا أسمدة ولا مبيدات . فكان الناس يأكلون
ما يزرعون وما يقتنون من طيور . يتجمعون عند بيت أحدهم فى المساء
يتناقشون فى أمور الحرب وفى همومهم المعيشية وإذا بهم يكتشفون عشرات
من الكلاب تتحلق حولهم وكأنها تستمع إلى حوارهم فى محاولة للفهم . تنتظرو
أن تنتهى النقاشات إلى قرار بشأنها . لما يئست - الكلاب - خرجت تتجول
بحثا عن حل ذاتى لمشكلتها !!

كان النخل يحمل بلحه الذى بدأ يتلون . لم أر فى حياتى كلبا يأكل بلحا .
إلا أن كلاب الشط تفرقت فى قسمة عادلة كل مجموعة تحت نخلة . حين
تسقط بلحة يسرع أحدها لالتهاמה . كانت الكلاب تدور حول النخلة تتعجلها ،
بل وتحاول التسلق . حين طاب البلح تساقط بكثرة فشبع الكلاب . عاشت
على هذا البلح أكثر من شهرين !!

بدأ زحف الجنود إلى الشط . اختار قادتهم المواقع . بدأ الحفر وبناء
التحصينات . إتجه رجال الشط لعقد العلاقات مع الجنود وتسهيل الحياة عليهم
وتبادل المنافع التى كان أهمها استبدال الخضر والفاكهة - التى لا سوق لها -
بالفائض من "الجراية" وبقايا الخبز التى كانوا يعودون بها للكلاب . كانت
الكلاب تتجمع بالعشرات أمام كل دار قبل الغروب لتتناول جريبتها !.

شيئا فشيئا بدأت الكلاب فى التعرف على الطرق المؤدية للجراية - مواقع
الجنود - وزعت الكلاب نفسها إلى مجموعات صغيرة - كلبين أو ثلاثة لكل

موقع - هناك أحست بالانتماء مرة أخرى نسيت أهلها القدامى واستراحت
لأهلها الجدد !

حين كانت القذائف تنهال وأصوات الدانات تعلو كانت الكلاب تختبئ في
المواقع مذعورة تتكئك أسنانها رعبا مما كان يوتر الجنود أنفسهم ، ثم اعتاد
الجنود رعب الكلاب . بل كانوا يعرفون منها انطلاق الدانة إذا ما رأوها
هرولت ، يادروا إلى مدافعهم .

لا شك أن كلاب الشط شملتها نفس الحيرة يوم العبور العظيم ، حين وجدت
الجنود يغادرون مواقعهم ويتجهون لعبور القناة . لا شك أنها أحست مرة
أخرى بضياح الوجود . لكن هذه المرة لم يطل بها الانتظار إذا سرعان ما عاد
الجنود المنتصرون ، ثم بعدها عاد أهل الشط القدامى إلى دورهم يبحثون عما
بقى من كلابهم القديمة .

مائدة السفير!!!

أنا مواطن صالح . لست من بسطاء الناس لكنى لا أختلف عنهم كثيراً . أحملهم فى قلبى على قدر الاستطاعة . أحمل آمالهم وآلامهم وأهتف بها فى أحوال وألمح إليها فى أحوال ، حسب الظرف والحال . تحبنى حكومتى أحياناً وتضيق بى أحياناً، لكنها تعرف أن موافقى تتبع من تراب هذا الوطن وأن لا يداً ثالثة خفية لى، وأننى راض وقانع بلقمتى التى أكلها بعرق جبينى من جهدى المخلص وكلماتى التى لا تقصد إلا خير هذه الأمة وإضاءة السبيل أطمح شعبها ليسهل عليه تحقيق أهدافها . أحيا حياة البسطاء . أربى طفلتى على الصدق وفعل الخير ومحبة هذا البلد مهما قسا علينا وكافأنا عن الحب بالشطف وبعض التجاهل والمعاناة .

لست من بسطاء الناس فبعضهم يبيت على الطوى . أما أنا فلا تخلو دارى من طعام فى الغداء والعشاء . أحب أكل بيتى الذى غالباً ما أطهوه بنفسى . فزوجتى أرق من أن أدفع بها لتقوم بهذه المهمة اليدوية الشاقة . إذا أنا لست فى حاجة إلى أن أتناول وجباتى خارج الدار . لذلك فأنا لا ألبى دعوات العشاء العربية العديدة التى تصلنى لأننى لا أكون فيها "على راحتى" والطعام كالحب كلاهما يتطلب نوعاً من الحرية وعدم المراقبة حتى تحدث المتعة ويتم المطلوب منهما على خير وجه . ناهيك عن أن هذه الدعوات - أى هذا الطعام - تبدأ بالخطب وتنتهى بالخطب التى قد لا أنفق مع ما يطرح فيها من أفكار تقلل اللقمة فى المصارين أو قد ترددها للفم مرة أخرى فى استغلال واضح للمقولة الشهيرة "أطعم الفم تستحي العين" .

هذا عن الدعوات الرسمية للأخوة العرب ، سفراء أو وزراء أو هيئات :
فما بالك إذا كانت الدعوات من السفارة الأمريكية وباسم السفير الأمريكي
نفسه ؟ دعوة عشاء للعبد لله ابن الشيخ الأبنودي والمرأة الأمية فاطنة قنديل ؟
قلت : لا بد أخطأوا فى الاسم والعنوان فأنا لا أدعو للعشاء فى منزلى إلا صفوة
الأحباب ، وأمريكا المبجلة لم تترك لنا "حرم إبرة" ننفذ منه إلى جيبها ولم تسع
يوما - ولو على سبيل المجاملة الكاذبة - إلى أن نفسح لها شبرا فى عواطفنا
التي تتسع لحب الدنيا وبشر الأرض . شأنى فى ذلك شأن أهل مصر جميعا ،
هؤلاء الذين خاضوا الحروب وفقدوا أبناءهم وتهشمت دورهم فى مدن القنلة .
هؤلاء الذين هدم العدو الإسرائيلى جدران مصانعهم على رؤوسهم فى "أبو
زعل" ودفن أطفالهم تحت أسقف مدرستهم فى "بحر البقر" بالقنابل الأمريكية
والطائرات الأمريكية . هل أجلس مع السيد السفير الأمريكى على مائدة واحدة
أشاركه بشهية التهام جثث أطفالنا الشهداء؟

ما إن تجاهلت الدعوة حتى لحقت بها دعوة أخرى - طبق الأصل - تحمل
نفس العنوان - بالإنجليزية طبعا - (للقاء رموز الثقافة المصرية) يسرّ ..
إلخ .. هكذا وجدت نفسى أتساءل : وهل أنا من هذه الرموز؟ متى وأين؟ أنا
رجل من عامة الناس يتوجه إلى عامة الناس ببعض الكلمات . لم أتل جائزة
من هيئة أو وساما من دولة . رفضت أن أصبح عضوا فى المجلس الأعلى
للثقافة والفنون . أهرب من اللقاءات الرسمية إلا إذا أجبرت على حضورها
إجبارا . أكره الملابس الرسمية وأعلن ذلك . حين يتجاهلنى الرسمىون يحتفى
بى فقراء الناس وهذا منصب تندر حيازته وأنا فخور به إلى أبعد الحدود وهو
الوسام الوحيد الذى أعلقه على صدرى.

إن أمريكا تمكّن لأعدائنا من أرضنا . تحاصرنا فى مصر والعالم العربى
راغبة فى إعادة صياغتنا مع ما يتمشى مع مصالحها بصفتها حاكم العالم
الأوحد . تحاول شق صف أمتنا والفرقة بين مسيحيينا ومسلمينا ، واستغلال
أوضاعنا الاقتصادية أسوأ استغلال . وأنا ضد كل ذلك . أى أننى ضد

أمريكا . فماذا يريد منى سفيرها؟ أن يتوبنى؟ أن يجعلنى أكتشف أن كل ذلك إنما هو فى مصلحة أهلى الفقراء وفى مصلحة مصر المجاهدة ؟ أم أنه ..

تذكرت أنه فى حالات الثأر فى الصعيد يلجأ أهل الثأر إلى استدراج رجل من أهل القاتل للاتفاق على زراعة أو بيع أرض أو ما شابه ، وهناك يقيمون له وليمة عظيمة دليل الحب والوفاء ، وبينما هو منغمس فى الطعام ينزل عليه قضاء الله . لا أعنى أن الدعوة هنا لإتمام قتل أو ما شابه ، لكنه قتل من نوع آخر يتم فيه اكتشاف فضائل من يتربصون بنا فى نوع رقيق من أساليب قتل الموقف . قتل فكرة "الوطن" البالية التى نتمسك بها بحمق ، ولنتعلم شيئا عن العولمة والكوننة ونخرج من شرنقتنا القديمة المتخلفة .

بعد الدعوتين بيوم وصلتى الدعوة الثالثة . لكنها كانت هذه المرة من د. إبراهيم فوزى وزير الصناعة السابق ورئيس (جمعية الصداقة المصرية الأمريكية) لحفل عشاء يتم فيه تكريم السفير الأمريكى بالقاهرة بأحد الهوتيلات الشهيرة فى مصر المحروسة . نشاط ما بعده نشاط بينما لم تصلنى دعوة واحدة للمشاركة فى تكريم العالم المصرى د. أحمد زويل .

أيها الأخوة المواطنون الذين أهدوا أسماعنا للسفارة الأمريكية ، مرة أخرى أردد: أنا "مواطن" مصرى صالح ، ما زالت آثار طين الصعيد القديمة عالقة بأقدامى المشقة . ليس لدى ما أرفعه إلى السفير الأمريكى ، ولا أجيد السماع إلا للفلاحين من أمثالى . أو من بالأفعال لا بالأقوال . أعرف أن إسرائيل عدو ماكر يستند على الجدار الأمريكى ، وأن القتل والبطش والتشريد الذى تمارسه إسرائيل المسلحة نوويا رغم أنف العالم هو على قلب أمريكا "زى العسل" وفى بطن أمريكا "أحلى من الشهد" أما قلبنا فملئ بالمرارة ، وبطننا متخم بالحنظل . فكيف أستسيغ طعامك الذى هو لحم مأساتنا على مائدتك يا سيدى السفير المحترم ؟؟

ثقافة القذارة !!

كلما نزلت ببلد ، تفحصت - شأن كل زائر غريب - ملابسه وأدواته ، شوارعه ومبانيه ومحلاته ومنتزهاته ، أعقد المقارنات وأحدد الفروق .

أميز التلقائي المستقر فى سلوك الناس ، من المصطنع الخادع المعمول للمواششة والمغاششة . أهرب إلى الشوارع الخلفية المقنعة بالشوارع الرئيسية البراقة . أدقق النظر فى سلوك يتم بإيمان ذاتى وآخر يتحقق لفزع من سلطة صارمة لقانون شديد العقاب . أرقب الأرصفة والواجهات وأبواب العمارات الضخمة ومداخل وجدران الدور الفقيرة . تشدنى النظافة واللون والهندسة والهندمة وحركة المرور . ذلك ما أقيس به درجة تقدم كل دولة ومدى تمدن أهلها .

لا يصح أن نقيّم بلداً أو تدلى عنه برأى حاسم ونهاى من محصلة السير فى الشارعين الرئيسيين النظيفين الممتدين بطول وعرض عاصمته ، تماماً كما يفعل رؤساء الدول الذين حكم عليهم أن يكونوا فكرتهم عن البلدان من خلال تلك اللحظات السريعة التى تخطفها أبصارهم عبر زجاج السيارة الغامق المغلق - بينما السيارة تنهب الأرض بين صفين من جنود يعطون ظهورهم للموكب الرسمى ، أو بين صفوف من بشر مكلفين بالاحتفاء يقفون على يمين وشمال الموكب يوارون الأبواب وفوهات الدروب ويؤس الشوارع الخلفية - ينهمكون فى الحوار السياسى المهم ، يتلمس كل رئيس الطريق لما يفكر فيه الآخر فى

حرص بالغ ، ودرجة عالية من التركيز لا تسمح بتركيز آخر فى مراقبة
المباني أو الشوارع التى غسلت خصيصا !!.

أما نحن - صعاليك المدن - فإن شيئا لا يلهينا عن المراقبة والتفتيش فى
التفاصيل والتفتيب فى بقايا الصور الموحية . لدينا دائما من الوقت والأصدقاء
وضَعَف المهام التى نذهب من أجلها ما يجعلنا نفرض غلالة نفاق المدن .
نتجاهل الألطاح والأصباغ على الوجنتين الضامرتين . نزيح الباقة عن الرقبة
المعروفة . نخترق عيوننا المدربة الماهرة الملابس المترثرة الأنيقة لنتبين
كرمشة الجلد وتهدل البطن وبروز العظام .

فأجساد المدن كأجساد النساء يفترسها الزمن وسوء الاستعمال !!.

لا أتحدث عن البلاد الأوروبية فلها منطق خاص فى النمو ولها جمالها
الذاتى الحقيقى فى كل مرحلة سنيّة لها طرقها الخاصة فى التطور والحفاظ
على آثار الماضى وتسعى جادة دعوبة من أجل تجميل صورتها حتى فى
المستقبل الذى لم يطرق الباب بعد !!.

راقبتُ العديد من البلاد العربية جيدا : "المغرب" بمدنه الكبيرة وقراه
الصغيرة .

تلك التكوينات النظيفة التى تعانق الجمال وبعانقها ، وتلك التشكيلية
المتداخلة من الألوان البيضاء والزرقاء والخضراء .

(تونس) وقد حُرثتها شمالا وجنوبا إلى أبعد قراها حتى تلك المدفونة بين
جبال مناجم الفوسفات والأسمنت .

ليس اللون خداعا لأبصار الغرباء ، ولا النظافة لأن شخصية مهمة على
وشك المرور ، يدهنون لها نصف سيقان الأشجار ويلوثون الواجهة الكابية

للقرية - التى لا تحجلها قذارتها - لحجب القذى والقذارة عن المتلصصين من أمثالى .

لن أضرب المثل بمدن الخليج فكلنا رأيناها . لكن البترول وإيراداته غير المحدودة يستبعدا من مجال تلصصنا ، فأنا أريد البرهنة على أن الفقر ليس قرين القذارة ولا يتستر خلفها .

(النوبيون) فقراء ، لكن الدروب مكنوسة ، والدور ذات الأرض الترابية نظيفة مرشوشة مبخرة ومعطرة ، مرسومة الواجهات مزينة الحجرات !!
كان دائما ذلك النهم فى صنع الجمال وإعلاء قيمه ونبذ القبح والدخول فى السباق المحموم للفوز بشهادة العالم عن رقى البلاد وأهلها .

إلا نحن . إلا مصر صانعة الحضارة وباعثة خيوط الفجر الأولى إلى ليل البشرية ، فهى مغرمة بالقذارة . كأنها ميراثها الوحيد . تشمئز من النظافة . يزعجها الشارع المغسول والسلم اللامع والواجهة النظيفة والشجرة الجميلة . لا تنام ولا يهدأ لها بال إلا بالتلطيخ والتليخ . كل منا يمارس دوره التاريخى فى رد النظافة إلى قذارتها الطبيعية التى ترتاح إليها عيوننا وتطمئن قلوبنا وتهادأ أفكارنا بعيدا بعيدا عن قلق الإحساس بالتناقض بين أماكن نظيفة وأخرى قذرة !!.

فى المدن كما فى القرى إنها السمة البارزة لشعبنا : أن تتميز شوارعنا ودروبنا ومكاتب مؤسساتنا وشواطئنا وقطاراتنا ومحطاتنا ومدارسنا وبيوتنا بالطبع بتلك القذارة الفذة التى لا تستطيع مجاراتنا فى تحقيقها دولة أخرى فى هذا العالم الواسع !!.

من أين اكتسبتنا ثقافة القذارة هذه ؟

هل هي من اختراعنا أو مستوردة ؟

من الذى صرفها لنا وأقنعنا بها وكتبها علينا ؟

هل هي زاحفة مع حضارتنا وتوارىخنا أم هي ثقافة كامنة في جوهر رؤيتنا الجمالية وفهمنا للحياة ؟

أم إنها إحساس بعدم الانتماء .!!؟ كأن وجودنا على هذه الأرض مرحلى وأننا في طريقنا للعيش في بلد آخر وأن إقامتنا بها (ترانزيت) .

وأخيرا ، هل (فساد الأمكنة.!!) يلعب دوره في إفساد الذمم وقذارة النفوس ، أم أن فساد الذمم هو الذى أدى بنا إلى (فساد الأمكنة) ؟

يتمتع الشعب المصرى بخصال حميدة جمّة . يحمل قيما عريقة شديدة الأصالة . هو شعب متحضر بكل ما تعنيه الكلمة ولا خلاف على ذلك .

لكننى كلما نزلت وعُقدت المقارنة من تلقاء نفسها ، تساءلت رغما عن أنفى : "من الذى سلحنا بثقافة القذارة ليجعل منها أكثر خصالنا أصالة؟". !!.

بَوَابَةُ الرِّحِيلِ ..!!

نتحمل . يضغطون ويضغطون ونتحمل . ننزف قطرة لا نحس بتأثيرها إذ ليست القطرة نزيفاً . مع مرور السنوات يخور الجسد . يتفكك . ويذبل العقل وتجف العاطفة . حتى إذا ما أحسوا بدنو أجلك فتحسوا لك الأبواب على مصاريعها أرحب من صدر الأم . تحاول الوقوف على قدميك فتجذبك الأرض بحبالها الخفية. تحاول تذكر الأفكار لتجدها بهتت . الأحلام لتجدها أحبطت . تحاول أن تلم ذاتك فتكتشف أنك لست أنت ، بل بقايا فكرة قديمة مهملة نجح القتل المحترفون في الإجهاز عليها عليك !!..

نعم هم ماكرون إلى هذا الحد . متخصصون في القتل . مدربون على نظام النقطة نقطة . يراقبونك - كتجربة ناجحة - بعيون مبتسمة تشجعك على الاحتمال والاستمرار ليستمر النزييف .

كيف تصعد ثوراتنا أمام الزمن الساحق ؟ وكيف تلملم خيوط ذاتك التي تحيك الماكينة الدائرة منها كل يوم خيطاً ؟ وكيف تظل على التماسك وأنت مترئص بك في كل حارة بـ "شومة" ، وفي كل مكتب في مكاتب الحكومة بهراوة ؟

ترقب الفساد فتصمت . تتعرض للظلم فتصمت ، حتى تسير صامتاً معتقداً أنك تتكلم . ما جدوى أن تقول فلا تسمع ؟ أو تشدو بلا صوت ؟

إنها الفكرة الملعونة التي قام عليها أدب "كافكا" الرهيب . القتل اليومي بدون أسلحة . الموت التعيس دون مرض ظاهر . العداء السافر دون عدو مرئى ؟

هكذا تنفتحت الأحران ففتقد قيمتها العبقريّة ، وتنقطع الأواصر دون أن تحس
الأطراف . تستوى الحياة بالموت . الامتلاك بالفقد . تفقد الطعم والمعنى
ويستوى لديك الأسود والأبيض . تنقهّر إلى آخر صف ليكون عقابك أقل .
حين تشرف على الموت ينادون على إسمك بصوت جميل . ساعتها تكون قد
نسيت الإسم والحلم والشرف والمواطنة ولا تستطيع المروق من لعبة الكساح .
طالما تشكل جماعة الشرفاء البلهاء ، فسوف نكون دائما نشاز العالم الذى
يعيش ويتمنطق ويتألف مع نشازة الخاص .

إن أكره ما يكرهون "صوت الحقيقة" . لذلك يسارعون بإهدائك الثقب
الشرياني . نقاط دم تتبعك لأنك فى اندفاعك للأمام لا تنظر إلى الخلف !!

الإهانة والتجاهل والهش والنش والتسلط والأقوال الكاذبة المتتابعة التى تدق
على رأسك حتى يصبح الفكر صفيحة ملساء تملؤها الخروق ، تفقد الاهتمام
بالبشر وقضاياهم ثم تتبع ذلك بفقدانك اهتمامك بمذاق الدنيا حلوها ومرها ، ثم
فى النهاية تفقد اهتمامك بنفسك .

تغادر الوطن إلى ذاتك . توصل عليك ألف باب . حينئذ تسمع صوت من
جاء معتذرا ، مبتسما ابتسامته الصفراء . يقسم أنه جاء نيابة عمّن اكتشفوا
الخطأ فى حقك ليعطيك ذلك الحق !!.

ساعتها تكون قد زهدت - وهم يعرفون - تحاول القيام ولملمة الجسد فى
عجز . تتبسم لهم فى بلاهة لتسقط بعد الابتسامة آخر قطرة تعلقت بأطراف
جدران غرورك ، فتغمض العينين ، ثم تمضى . مودعا الوطن ، والزمن ،
واللعبة التى اكتشفت قوانينها وأنت على بوابة الرحيل .

إنهم يقتلون الجياد

أليس كذلك ؟

النشاز الجميل ..!

فى الستينيات ، كنت محروما من ممارسة حقوقى السياسية . ممنوعا من ترشيح نفسى أو حتى انتخاب نائب عنى فى مجلس الأمة أو فى أى مجلس آخر . كانت هناك دائما كشوف الممنوعين من المشاركة فى الحياة السياسية وكنت أرانى والصديق صلاح عيسى كل منا على رأس كشف أراحونا واستراحوا كنا نعامل كأعداء لشعبنا الذى نعشقه والذى اعتقلنا العسكريون حماية له منا .. من شرونا وغدرنا .

رغم كل ذلك فإن العناصر الليبرالية غير المباحثة والمخابراتية كانت تستعين بى أحيانا فى إقامة أمسيات شعرية (وطنية) لتجمعاتهم . كانوا يلامون على ذلك . فى الوقت الذى وصل فيه الأمر بالانتهازيين من أشباه الشعراء (ودلاديل) الأحزاب إلى حد اتهامى بالعمالة للنظام بل وللمباحث أحيانا . وفى الوقت الذى لم أكن أستطيع فيه الحصول على قوتى اليومى كانوا ينسجون الأساطير حول ثرائى ، وأن كل ثوريتى تلك مجرد تمثيلات متفق عليها مع السلطة ..!!

ليس هذا بموضوعنا الآن فقد دفعوا ثمن ذلك قبلنا . من سجننا سجن ، ومن اعتقلنا اعتقل . الفارق هو فى تعاطفنا معهم ودفاعنا من أجلهم . وحين انهالت الطعنات تمزق سيرة الزعيم بعد رحيله انبرينا للدفاع عنه بوازع من ضمائرنا الوطنية والقومية بعد أن نسينا جراحنا أمام جراح الوطن ..!

لكن فلولهم التى استقرت على العداء لنا . ظلت دائما تحمل ذلك الإحساس بأننا لسنا جزءا أصيلا من الجسد ولا حق لنا فى الإرث - الوهمى - الذى خلقته السلطة البائدة للسلطة العائدة . ذلك لأنهم ربوا على العداء للعناصر المتفردة المتمردة الشاردة عن القطيع المطيع . هكذا ورثنا عداء الأنظمة لهم وعوملنا فى العهود الجديدة على أننا منهم فوقنا بين حجرى الرخى : الشوف الخاص ، والوعى الذى نكتسبه بأنفسنا لا الذى يصرف لك كجراية السجن أو الجيش ، وعلى هدى مما يفقدنا إليه الضمير المنزه !!

كنا فى الماضى - ومازلنا تقريبا - نعتقد أن الجهد الفردى يقود إلى الضياع . أن الإنسان إذا لم يكن جزءا من كل ، وعضوا فى بدن ، وخطا فى نسيج ، فإنه يعجز عن ستر عورات الوطن والزحف نحو تحقيق أهدافه وطموحاته . لكن القدامى اعتبرونا أعداء لهم ، متجاهلين الأعداء الحقيقيين للأمة ولنا . أما الجدد فاعتبرونا رصيد القدامى على الرغم من الاعتقال والمطاردة وقطع الأرزاق .

لكننا فى رحلة معاملتنا كالأقليات المريبة ، لجأنا لأساليبها - الأقليات - دخلنا شرنقتنا الخاصة . أفرزنا نسيجنا الخاص . طرنا كالفراشات الحرة لا نأتمر بأمر ولا ننظر لسلطة . بل عكفنا على قراءتنا وكتابتنا . نستذكر كالتلاميذ ، ونجود فى صنعتنا ، ونوثق علاقاتنا بأبناء شعبنا حتى يحققوا لنا الحماية فلا تأخذنا السلطة غدرا كما حدث لنا فى السابق !!

أما السابقون فمازالوا يطلقون علينا صبيانهم الذين يسكنون المقاهى وغرف الدخان . يقفون بيننا وبين القادمين الباحثين عن الحقيقة . الراغبين فى المعرفة . وأما اللاحقون فإنهم يصفقون لك بحذر ، ويزرعون لك فى كل وزارة أو إدارة أو مؤسسة عضوا له عيون خلف العيون ، ينظر إليك

باستراحة ، وتكاد عيونه الداخلية أن تفتش جيوبك ، وتقلب في ملابسك الداخلية لترى ما تحتها !!..

إنه الشرف الذى منحنا إياه السلطان : القديمة والحديثة . أن تكون دائمـ فى موضع اتهام فهذا يعنى أنك مازلت على قيد الحياة ، وأنتك النشاز الجميل الذى لا يخضع لسلطة لك عليها ألف ملاحظة وألف تحفظ .

هناك مثل تونسى يقول : (القمح بيدور يدور ويرجع لقلب الرخى) ، أى أن الحبة مهما حاولت الهرب من مصيرها بين شقى الرخى فإنها فى النهاية لابد ملاقية الهرس والطحن . لكن على الإنسان الشريف أن يظل يقظاً فى رحلة الهرب من الانسحاق بكل ما أوتى من وعى . شاحداً كل طاقات الأمل والبصيرة . متسللاً بين ثغرات الحجارة القاسية الطاحنة أملاً فى الخروج من رحلة الهلاك نظيفاً كما بدأ محققاً نشازة الجميل !!..

الماكوك !!

أنا "ماكوك" ينزلق جيئة وذهابا بين الطبقات مما يتيح لى رؤية هذا الكيان الذى ننتمى إليه فى صورته الحقيقية الواقعية دون تزويق أو تزويق أو تبديل أو تجميل.!!

إن إسمى المشع والمطرقة حيز لى - لا شك - مكانا مرموقا بين أبناء الطبقة العليا التى بهمها أن تجمع ضمن ما تجمع من تحف وطرائف ونوادير ، شيئا مثلى إسمه كالتبلى يلتف الجميع حول أقواله وأفعاله باسطين لسه أكف الترحاب وساحات الاستقبال دون رقابة . خاصة أن أغنياء عصرنا هم من النماذج الصاعدة من مثل بيناتنا أتاحت لهم مفارقات الأحوال السياسية وانقلاب الأنظمة وساعات الحظ والاستعداد الشخصى من ظُرف ولُطف ومداهنة وملاينة فتح أبواب مصادر النعيم ، ولما كان المال يلد المال ويحمل قُوَّههُ مُنهكه ، وكثيرُهُ قليلُهُ فى تعاطف حميم فإن أيدى القلة غرفت وامتألت فى سنوات معدودة ، وفى زمن يبدو نموذجيا ، وحين كانت مصر تخرج إلى الشوارع تطالب بالحرب وتحقيق الحلم الذى تَعَقَّن فى الانتظار كان هؤلاء قد انتشروا فى البلاد العربية والأوروبية يمارسون فى طاعة صادقة وإخلاص مطلق ما يطلبه منهم الكفيل العالمى والممول الذى يُعَدُّهم للعب الدور الذى نرى الآن بعضا من ملامحه على حين تسفر الأيام المقبلة عن بقية الملامح ملمحا بعد ملمح .!!

وحين استشهد أبناء الوطن تحت بوابة الانتصار ، عَبرَ هؤلاء على الجثث الممزقة والدم المراق والموت بعيدا عن الأهل والدور . عبروا ليقطفوا الثمرة

بأيديهم الطويلة أثناء تدبيجنا القصائد وتبديد الوقت فى جمع الشهادات وتقديم الأمور . عبروا بقلوبهم الأسمنتية وأرواحهم الخاوية الصلدة يملأون جيوبهم بما لذ وطاب ويلتهمون الصحارى والبرارى والشطوط والبحيرات والممرات والأبنية القديمة ودوائر الميادين وأسوار البساتين حتى كادوا أن يستولوا على كل شىء ؛ إن لم يكونوا قد فعلوا !!

ننام ونصحو لنرى الشارع غير الشارع . هُدمت الفيلات العتيقة وارتفعت الخوابير والزنابير والناطحات والشاهقات . إختفت معالم الطرق الصحراوية تحت الأبنية الحديثة ذات الحدائق والبيسينات .

مساكن حديثة تحقق الخلوة والخصوصية وتخفى جرائم النهب ومؤامرات اللصوصية . أبنية رخامية فاحشة التكلفة ، تلتقيك بوجهها الطبقي الوقح ، تكاد أن تصفحك أو تخرج لك لسانها وأشياء أخرى !!

لو كان مسموحا لهم أن يأتوا بعمال كوريين أو هندو لبناء حصونهم لما ترددوا فعيون الفقراء المصريين "وحشة" تحسد وتعدّ - فى السر - مظاهر النعم التى حُرمت منها ويملكها هؤلاء . لكنهم مضطرون للتعامل - على مضض -- مع فقرائهم وهم يعرفون ما يضررون !!.

كذلك فإننى - كماكوك - متصل اتصالا عضويا بأهلى وجيرتى من فقراء مصر فما أن أرتدّ من هؤلاء حتى أرتمى فى أحضان هؤلاء .

من الشذى العطرى والسيارات الفارهة والأطعمة الرائعة داخل وخارج "أبنية الهيبة" ، إلى الذباب وروث البهائم الحبيبة الغالية وأحاديث الحفاة العراة التى هى الأئين صافيا . مطاردات بنوك التنمية للفلاحين التعمساء ، وتعقّب الدولة لهم فى الحقول المكشوفة والصقيع الشتائى والديون المتركمة ومطالب البنات والولد . أراهم يهرولون لجمع الجنيهاات لتجهيز ميت فقير ، أو إعانة امرأة ماتت جاموسها التى تعول جيشا . يطلقون النكات على فقرهم والملحوظات التى تفتن عن الرؤية العبقريّة لواقع الحياة السياسية فى مصر ،

وعن التناقض بين صورة مصر فى الإعلام وصورتها بوجهها الحقيقى على أرض الواقع . يضحكون ملء الفم ضحكاً مُراً حين يستمعون إلى ألفاظ مثل "الشفافية" أو "تخفيف العبء عن كاهل الفقراء" .. أو .. أو .. لم يعودوا ينتظرون منا أو من الدولة شيئاً !!

إنتظروا وإنتظروا فإذا بالأحوال تزداد بؤساً ، والمعاناة تشتد قبضتها على الرقاب . تطلعت عيونهم بعيداً وتعلقت بالأفق سنوات وسنوات حتى تساورت شمس الأمل خلف جبل اليأس التاريخى الشامخ والباقي كتعاليم الرب !!

عند كل حركة ، أو قرب كل تغيير ، يتوقف الماكوك - الذى هو أنا - فى المنتصف . عند الطبقة الانتهازية التى هى نحن والذين نقف كالواسطة لتسويق الظلم ودهن الفواقع بدهان يخفى معالمها كى نستطيع إغلاق عيوننا فى فرشنا ليلاً. عند كل حديث عن تغيير : تغيير وزارة ، أو محافظين ، أو حتى فى صفوف القيادات الصحفية . ندلى بدلونا . كل منا يغير الكون على مزاجه ويفرد خريطته أمام الآخرين ويتحدث بثقة العارفين ، وإذا بالدولة الذكية اللئيمة تبطش بهذا الاجتهاد حين نستيقظ فلا نرى تغييراً ولا تبديلاً ونذكر أننا كنا ضحايا نفس الخدعة التى بليت من كثرة الاستعمال !!.

نفكر للدولة كأننا نخشى عليها . فتفاجئنا هى برفض خشيتنا عليها لتؤكد لنا أنها قوية بما يكفى وليست فى حاجة لموازرتها !!

هكذا أروح وأجىء تقذف بى طبقة ، وتستردنى طبقة ، دون أن يأخذ رأبى أحد. ليس للماكوك إرادة . إنه يشارك فى نسج أحداث الواقع دون أن يكون له رأى فى ذلك !!

العدالة !!

حين أتأمل فكرة العدالة وكثافة الضباب والغيوم والأترربة والعوالق التى تحيق بها فى بلادنا ، أعرف جيدا لماذا انحدر الخلق العام إلى تلك المـهاوى السحيقة ، ولماذا ارتفع صوت الضجيج والعراك والصدام فى الشارع المصرى حيث يسعى كل فرد لتحقيق عدالته بنفسه ، وهذا شأن المجتمعات التى تفرط فى القانون وتطوِّع مهامه ووظائفه الأساسية تبعا لموازن القوة وسطوة الأفراد التى تدعم مراكزها المناصب أو المال ليُدَّهس الفقراء تحت أقدام الأغنياء دون رحمة أو تعاطف وكأننا خراف تسربت دون قصد إلى قطيع من الذئاب !!

فى الأسبوع الماضى كنت فى فرنسا للمرة الثانية خلال ستة أشهر ، وكأننى أمدنت مراقبة دمائه الخلق العام وهذا التسابق الصادق الحى ليثبت خلاله كل فرد فى ذلك المجتمع بأنه الأرق قلبا والأكثر عاطفة والأغنى مشاعرا ، المحب الودود ذو الخلق السامى والطباع الطيبة !!

إنها مجتمعات عبرت الجوع والمعاناة والضرورات التى تؤدى إلى الكذب والنفاق والمداينة لتضمن مجرد لقمة العيش كما يحدث فى بلادنا . بلاد قلادة على أن تنتزع الوزير من كرسيه . تقبله أو تجبره على إقالة نفسه . بلاد تختار رؤساءها وتغيرهم كما تغير الخلل كلما أحست بكرمشة "البطانة" أو ضيق الأكمام أو قصر الجاكيت على المؤخرة !!

من هنا ، فإن إحساس المواطن بأن البلاد بلاده والقرارات قراراته والقانون مظلة تحميه من بطش باطش وتنتقم من المتسلطين مهما علت مراكزهم ومهما تخيلوا لأنفسهم مكانة أو أهمية فى مجتمعاتهم . الفقراء محترمون تماما مثل

الأغنياء . عليهم واجبات يؤدونها بحب بل بعشق وإخلاص وتقان . لهم حقوق دونها الموت فلا يستطيع أحد أن يغيّر لون مسكنه دون الرجوع إلى جبرته وإلى مجالس المدينة التي لا ترتشى ولا تقبض من تحت المنضدة ولا من فوقها ، ولا يتوأ مقاعدها اللصوص والسفلة ، وإنما سيف القانون مصلت مخيف ينزل حيث يجب . لا ينحرف به مال أو قرابة أو وساطة !!

إن إحساس المواطن بالعدل أساس لحياته . إحساسه بأنه يعيش في مجتمع يحترم جهده وأدميته وأفواله وورغباته . يعنى بمسكنه وملبسه وتعليمه وثقافته وطعامه ومواصلاته وعقله ووجدانه . إحساسه بأن كل الآخرين يعملون من أجل الإضافة إليه ، مؤمنين بأن الإضافة إلى عقله ومشاعره إضافة للمجتمع المستنير الذى يتقدم بشكل مطرد. لم يخلق الله مجتمعات متقدمة ومجتمعات متخلفة كما تبدو لنا المجتمعات كحالات قدرية لا فكاك منها ، وإنما سعت كل جماعة لخلق أوضاعها وقيمها والقوانين التي تحكمها ومدى فاعليتها في الحفاظ على كرامة أفرادها ، لكل مجتمع أفراده الذين يستحقونه ، فمن حكم عليهم بعالم من البطولية والمرتشين واللصوص وسارقي أموال الناس والهاربين بأقدارنا ومقدراتنا إلى الخارج لا شك يستحقون ذلك تماما ، فقد سمحوا للعفن بالاستئراء . فرطوا في حقوقهم وتركوا للأشرار فرصة التلاعب بالقوانين حتى ضعفت إرادة القانون وانحلت مفاصله وسقطت ورقة التوت عن محاشيمه فلا الوزير اللص يحاكم ، ولا المحافظ الداعر سارق الأقوات يحاكم . لا يحاكم من له ظهر ومن يحميه الأقوياء بالمال والسلطة !!

هكذا تغيبض الدماء في وجه العدالة . تبلى ملابسها وتتعرى ثيابها الداخلية وأجزاء غالية من جسدها المكنون . تُبَنِّذ عوراتها وتبتهت ملامحها وتتحوّل إلى سائمة في شوارع الضياع والنسيان !!

تسعى الناس خلف حقوقها فلا تقبض غير الهوان والإذلال . يسحقهم الأغنياء وأصفياء السلطة وأولياء الباطل ويعودون بمراجل الصدور والحدق صاحب فيطلفونه في وجوه الآخرين !!

حين يغيب القانون فإن الناس تخلق قوانينها . يحاول كل فرد إثبات قوته طالما أن القوة هي القانون الفاعل . هكذا ينقلب الرجل المذهب إلى شتام قبيح الملاحظ فاحش القول دون رغبة في ذلك إلا ليثبت للآخرين أنه قوى كالسلطة وأن من يقترب من دوائر نفوذه سيدفع الثمن غاليا .

هكذا أصبح مجتمعنا يتمتع ببذاءة غير معهودة لا تعبر عن خلقه الطيب ولا أصالته التاريخية وإنما هي نوع جديد من الأصداف الواقية !!

هذه البذاءات والشتائم التي صارت سمة من سمات الشارع المصرى والتي تصم أذاننا ليل نهار ليست سوى محاولة لإبعاد الآخرين عن بعض حقوق الآخرين ومحاولة لنشر الرعب من أجل الحماية الذاتية !!

هذا هو الفارق بين مجتمع تسوده العدالة (الحقيقية) ويحكم العلاقات بين أفراد قانون واضح محدد مهيب ، ومجتمع يكثر فيه القانون وتهان فيه العدالة ، وتضيع حقوق الأفراد فلا يجدون سوى أن ترتفع أصواتهم بالنباح والسباب !!

جاهين ٥٦...!!

تساعت في وحدتي الهادئة في مكان بعيد عن القاهرة الالهية : ما الذى
يضير الحكومات المتعاقبة أن يبيث مذباعها وتليفزيونها كل ما كتب "صلاح
جاهين" عشية حرب السويس ؟

حاولت فهم القطيعة التى طال بها الزمن ، والتأثر المتوارث نظامًا بعد نظام
، وعدت مرة أخرى لشريط الكاسيت الذى نقلت إليه هذه الأغنيات متراسمة .
بعد قليل قلت : هنا تكمن الوطنية المفقودة ، والتأثرات الموعودة .

حين حجبوا أغنيات الوطن عن الوطن تقطعت الخيوط السرية التى تربط
الأجيال بالأجيال والذاكرة بالتاريخ ، والقلوب بحب الأرض والبشر والنهر
والبحر، فماتت روح المقاومة ، وهل تقاوم الروح من أجل ميراث تجهله ،
ووطن اشتراه من اشتراه ولم يتبقى منه شئ للأبناء ؟!

اثنان وأربعون عاما مرت على حرب ١٩٥٦ .. من تبقى من الشهود ؟ .
أقصد هؤلاء الذين كانوا على قيد الوعى والنضج أيامها ؟ . قلائل سيموتون بعد
قليل ، وتطمس الواقعة فى الذاكرة الشعبية كأنها لم تكن . لن يظل منها سوى
اسم خاو تمر عليه عيون أطفالنا فى الكتب المدرسية البلهاء يحفظونه (صما)
ليضعوه على ورقة الإجابة فى انتهائية متفق عليها من الطرفين وهى السمة
الأساسية للتعليم الحديث فى مصر .

طمست "رداوى" الأنظمة تلك الفترة . مسحت آثارها تماما . طاردت
روائحها ودفنتها كجثة قتيل تحاول التخلص من مسئولية قتله .

ولأن الأغنيات الصادقة تنتصب كالأعلام الثابتة أو النخيل القديم أو شواهد القبور كان لابد لهم من اقتلاعها وتهشيمها وإهالة الأتربة عليها حتى تختفى صورتها القديمة عن العيون وتكف عن "الزن على الودان؟!!"

نجحوا فى قطع التواصل بين الماضى والحاضر . بين بشر وبشر . بين مصر السابقة ومصر اللاحقة . فأدى ذلك بنجاح إلى ما نحن فيه وعليه .

أدرت شريط الأغنيات التى كتبها جاهاين لحرب ٥٦ أحاول استعادة أو تخيل اللحظات المصرية التى ألهمته بزاى تلك الحرب وهو بعد فى سن العصفير والسنابل ، فعرفت لماذا أنفّر وأحس بالغربة أمام كلمات "مؤلفى" الأغاني الجدد الذين فهموا الوطن سوقاً للبيع والشراء ، والوطنية سلعة مربحة مضمونة الأجر . هؤلاء الذين لا تتصل شرايينهم بقلب الرجل النبيل جاهاين مصر الكبير الذى حمل هموم الوطن الثقيلة وآماله البكر القاسية دون أن يئن . وحين أشد هوئاً على الأمة ألأمها وكشف عن جمال ألوان وتكوينات دماء شهدائها ، ورسم خرائطه الخاصة المزركشة ليجعل الوطن جزءاً من حياة الناس ويجعل من الناس جزءاً من بدن الوطن .

يا حمام البر سقّف

طير وهفّف

حوم ورفرف

على كتف الحر وقف

والقط الغلّة

كانت البوارج والطائرات تدمر الحياة فى بورسعيد ، وكانت الدبابات تهرس الأجساد بالعشرات على أسفلت الشوارع . وكان صلاح يعرف أن مصر والأمة العربية ليست أهل بورسعيد فقط . كان يرى أننا ندفع ثمن تحرير

الوطن ، فلم يتوقف أمام الدماء المنبتقة ملتاعا ناعيا وإنما تجاوز كل ذلك إلى
الغد الحر :

يا سايق الغليون

عدى الكنال عدى

وقبل ما تعدى

خُد منّا وادى

ده اللي فحتْ

بحر الكنال .. جدى

كانت هذه بدايات صلاح جاهين . خرج من فرن الثورة والحرب والموت
عصفورا ملون الريش رائق النغمات يحاول ناجحا أن يعقد المصالحة بين
الكاكي والزقزقة . السونكى والقلم . الشاعر والمقاتل. لكنه كان حين يحس
بالخطر يغادر قميص الشاعر ليرتدى أفرول الجندي حاملا "شُدَّتَه" على ظهره
معلقا "جربانديته" ناسياً أن يملأ "رمزميته" بماء قد يحتاجه فى صحراء القتال
وحومة الوغى صائحا!

حا نحارب .. حا نحارب

كل الناس حا تحارب

مش خايفين

م الرايحين بالملايين

حا نحارب !!

كان الرجل صادقا . كان هو الوطن . لم يهمه أن "يُنظَر" المثقفون وأن
ينفوا هذه الأقوال من جنة الشعر العميق الرصين !

الجنة هي بلادنا

وجهنم هي حدودنا

اللى بخطيها

راح يغرق فيها

ويدوق الموت على إيدنا

كأن حرب ٥٦ قامت خصبًا لترتفع هامة صلاح جاهين بين عشرات الشعراء الذين أسهموا في المعركة . تعلن عن ميلاد مدافع جديد عن الوطن المجيد .

أما رائحته (والله زمان يا سلام) فكان لابد من خنقها لينتهي عصر ويبدأ عصر نبحث في أركانه كالتائهين عن ذلك الإحساس الحميم بالوطن الذى ضاع فجأة ، وغادَرنا غير آسف ، والذى أطلقنا عليه فى مجانية خاوية اسم (الانتماء) !!

وكما نقول (ناصر ٥٦) فإننا يجب ألا ننسى أنه كان هناك (جاهين ٥٦) أيضا!!

حسن حاكم ..!

رأيت فى حياتى رجالا طيبين كثيرين . صادقت منهم كل من سمح لى بمصادقته . لكنى لم أصادف أطيّب من الرجل النبيل وفنان الكاريكاتير العظيم صديقى الحميم : حسن حاكم !!!

كانت مودته للناس وحبّه للخير فى هذه الحياة تتشكل من مادة عجيبة ربما كانت عصارة قلوب أمهاتنا وجذاتنا وجُمَار النخيل ورقة أحضان النيل ومواد أخرى تتراوح بين السداجة والبراءة والكرم النابع من القلب اللدن المحب .

هذه البشاشة التى لم تعرفها وجوه كثيرين فى هذه المدينة ، ولعلها مازالت باقية هناك فى وجوه سودانية نوبية صعيدية . لكن حتى تلك الوجوه قلصت الظروف القاسية انسيابها وجمدت صروف الحياة بشاشتها التلقائية الودود .

لكن "حسن حاكم" فناننا الطيب - الطيب حقا - حمل على كتفه النحيل الطفل حسن حاكم منذ الميلاد حتى الموت .

فى أوائل الستينيات نزلت إلى القاهرة شاباً وحيداً فقيراً وانتميت إلى (جماعة جريدة المساء) : عبد الفتاح الجمل ، فاروق منيب ، جيلى عبد الرحمن شاعر السودان المصرى ، الفنان المرموق مصطفى حسين ، وحسن حاكم ، وعادل ثابت كنت أزورهم فى الصباح ويعرفون أنى جائع وخرمان . أما "الجمل" فكان أباً دمياطيا شريفاً يكفيه مرتبه بالكاد ، وكان لا يطلب لى كوب الشاي . إلا لقصيدة جديدة جيدة تشعل عقله وعواطفه . عدا ذلك لم أكن فى نظره أساوى ثمن كوب الشاي . كان مربيا قبل أن يكون أخا أو أباً . يحمل

قسوة الأب من أجل أن ينصلح حال الابن ولو تركه يتضور جوعاً . وكان "جبلی عبد الرحمن" شاعر السودان الجمیل الذی وضع الله فی جوفه قلب جبن أخضر بدلاً من القلب ، على استعداد دائم للبكاء من أجل جوعی دون أن يجد طريقه لكبح جماحه .

أما القاص الحبيب الراحل فاروق منيب فكان يتوارى خلف مقولات تحط من شأن كل ما من شأنه أن يدخل المعدة ، مدعياً أنه يطفئ العاطفة ويعطل العقل .

كنت أحبهم حباً شديداً ، وكنت أسميهم (الجناح الشرقي) وكنت أبدأهم بالتحية وأتركهم متجهاً إلى (الجناح الغربي) المكون من طاولة رسم طويلة يجلس عليها الصديقان مصطفى حسين وحسن حاكم . أولاً لأنى كنت أستقبل بكارة رسومهما اليومية . ثانياً - وهو الأهم - لأنهما كانا يعرفان - جيداً - إنى مفلس وجائع وخرمان . بمجرد جلوسى كان حسن حاكم يرسل فى طلب ساندوتشى الطعمية المقررین مصحوبين بكوب شاي كبير لا تشرب فى حجمه إلا فى جريدة المساء ، وكان مصطفى حسين تحت ضغط الحرج وشبه الإيمان بالموهبة يرسل فى طلب علبة سجاثر ألتهم معظمها على طاولة رسمهما ، وحين تمتلئ البطن بالطعمية وأحبس بالشاي وأنفث دخان البلمونت أبداً فى "النقورة" و"النقوزة" على رسوم حاكم.

كان الزمن "اشتراكياً" ويد الرجل مغلوله إلا عن عاملين خالدين خارجين من بوابة المصنع يقولان نكتة لا تضحك . كل يوم ، نفس المصنع ، نفس العاملين ، وحين النقيه بعد غياب أسأله عن صحتها . كان يحب شعري ويدعونى إلى بيته أنا وبعض الموهوبين الفقراء لتناول وجبة من صنع زوجته "زينب" وبناته مهلاً أن ذلك الولد العفريت يقول شعراً كالسحر ، وكنت أسخر قائلاً إنه أخذ رأى جاهزا من عبد الفتاح الجمل !!..

غادر حاكم صالة المساء إلى الكويت حين غادرها مصطفى حسين إلى أخبار اليوم حيث علا نجمه وأصبح ظاهرة يومية . وإبتعد حسن حاكم عن العين لكنه أبدا لم يبتعد عن القلب . حتى فى سنوات مرضه الأخيرة بعد أن عاد وبعد أن تفجرت طاقات إبداعاته الحقيقية لم أزره سوى مرتين ، وحين اشتد به المرض انقطعت . هكذا علمنى صديقى د. سمير فياض قالها لى حاسمة : " لا تتورط مع أصدقائك المرضى " وذلك حين رأتى متورطا للغاية فى مرض صديقى الراحل أمل دنقل .

رحل حسن حاكم عن دنيانا هذا الأسبوع مخلفا خياله الحى قليل اللحم والشحم تكسو وجهه لحبة تليق به وكأنها تترك للعينين المشعيتين اجتذاب عيون أحبابه بعد أن لم يعد ثمة ظاهرا من الوجه غيرهما . كلما مررت بباب الدار القريب من بيتى وهممت بالدخول هتف بى الدكتور سمير فياض بجملته الحاسمة طالبا منى الاحتفاظ بالصورة الجميلة وعدم اللعب مع أفاعيل الموض بأحبابنا !!..

يسبقنا حسن حاكم - الوجه الأسمر المنحوت من حجر البازلت . ذو الملامح الفصيحة والبسمة المريحة والقولة الصريحة وهو يعرف أنه خلف وراءه جيشا من الأصدقاء - قد يكون قليلا - منقوشا على صدورهم إسما ورسم ، وعلى قلوبهم حبا وخيرا ، وإن كانت الظروف لم تمكنى من السير خلفك يا حسن - وأنت أولى أحبائى بذلك - فها أنا أحملك بمفردى على أكتافى النحيلة التى كانت مادة خصبة لنكاتك . أحملك بقدر ما حملتتى ولا أعتبر هذا كافيا لرد الجميل !!..

رحيل المسافرين .. خانة !!

كموت صديق حميم أصيل طيب الخلق والسيرة ، صديق يحمل أطرافاً منى وأحمل أطرافاً منه . يُشيع مرآه أو سيرته الدفء فى الذاكرة ، ويسهم فى إحكام برواز الهوية ويمنحك عائلة وقيمة وأصولاً !!

رحلت "المُسافرُ خانة" مخلفة فى القلب والأمعاء هذه المغصة وهذا الحزن الذى ينأبى التعبير عنه على الكلمات !! . كيوم رحيل الأوبرا المصرية العريقة النادرة . نفس المهابة . نفس العظمة . نفس العراق . نفس الإهمال . نفس الاستهانة . نفس النيران ونفس الرماد المتخلف على طرف اللسان !! ماتت المُسافر خانة فى حادث أبله والبقاء لله . لو كنا نستحقها ومبنى الأوبرا القديم لما احترقا !!

تتطاير تواريخنا فى الريح ورقة بعد ورقة وتنتهار آثارنا - التى تدل علينا - أنثراً فى أعقاب أثر . تفقد جوهنا تضاريسها ملمحاً بعد ملمح . عصاراة أيام العشق . دلائل الأعمار الفنية . روائح أيدى الأجداد المضمخة بالمسك . مع كل فقد يُقطع لنا جذر ، لتصبح العلاقة بيننا وبين حقيقتنا كعلاقة الحذاء العصرى بالأرض الأصليلة !!

انهارت الدار الدرة التى شيدها صاحبها ولم يقطنها . إحدى تحف القرن الثامن عشر ، إبداع تفتقت عنه مخيلة جمالية غير محدودة للتاجر الفيومى "محمود محرم" لم يخن بها عمارة المكان والعصر بل كان هدفه التأكيد عليها والإضافة إليها . ١٧٧٩ ميلادية ، ولم يمهل الزمان لاستقبال ضيوفه وإراحة أحبابه القادمين من السفر "والتكويج" فى البستان أو إلى جوار النافورة

المزركشة وإقامة الولائم لأحبابه فى الأمسيات الصيفية . مات وتركها لنا كنزا لا يمكن تجاهله أو تحاشى الفعل الطيب . استولى عليها محمد على باشا وجعل منها دار استقبال لضيوف الدولة العظام كأجمل ما تكون الاستضافة والإكرام .

كانت الدار بهجة للناظرين . دليلا على حب الفن وخصوصية الذائقة وعشق الحياة والأرض والبلد الذى نعيش تحت ظلاله . مازالت بقاياها دليلا على ما كانت عليه وإشارة إلى مجد قديم ، تدفع بالخيال لاستكمال الصورة القيمة الرائعة التى عبثت بها أيدي السنين والبشر . المباني القبيحة التهمت البستان . صعدت من حولها عمارات "الغرفة غرفة" تزاخم الدار فى مكانها ومكانتها وتوارى عزها والمجد القديم مخلفة الدروب الثعبانية التى لا تسمح بمرور شخصين متجاورين . غرف بالآلاف تؤجر منفردة تكتظ بمئات الزيجات مخلفة أطنان المخلفات تخرج أطنان الفضلات فتتبع الجدران من الداخل والخارج فى إهمال كالمتعمد صار من العناصر الأصلية لشخصيتنا أهلا وحكومة .

كان لابد من أن تحترق المسافرين خانة يوما . أو تموت غرقا . أو بالسكتة القلبية . أو تنهار . أو تهبط ليكتسى الوجه بحقيقته . فكل من عاش حول هذا الأثر لم يكن يدرى قيمته . كانوا يتعجبون من زيارتنا وتحلق الأجانب والدوران حوله بقديسية وخشوع . بينما فى الباب الخلفى كانت تسكن فرقة تقيم حفلات الزار تأكل وتشرب وتغسل المواعين وتسكب الماء كأنها تعيش فى حقل !!

كنا نحج إليها بين "درب المسمط" و"الطبلاوى" هناك عند عالم "نجيب محفوظ" فى الجمالية على جناح "قصر الشوق" . نتوه بين الغرف والإوانسات والسباطات والدواوين وقاعات المشربية التى تحمل إحداها أكبر مشربية فى مصر . تماما كما كنا ندور فى ردهات "بيت السنارى" و"زينب خاتون" وبقية الدور أو القصور التى تستحق فعلا أن تخلق أحياء بأكملها من أجل أن تمارس هذه الدور رسالتها فى الإلهام وتربية الذوق وغرس الانتماء !!

ماتت المسافر خانة محترقة . لم تستطع عربات الإطفاء النفاذ إليها عسير
الدروب الضيقة والباعة المكتظين وعرباتهم اليدوية المحملة .

أذكر حين كنا نملأ قاعة المشربية في حضرة الأديب الرسام "عز الدين
نجيب" الذى كان يعامل "المسافر خانة" كأم . ينظف ثوبها ويوصى الجيران بها
خيرا حين يجبر على تركها لساعات . يشرح للبطاء فى سذاجة وفطرية
وتصوف ، قيمة المكان الذى يعيش . لكن "عز الدين نجيب" فوجئ يوما بمن
يلقى بلوحاته من النوافذ المعلقة للمشربيات التى يحبها إلى عرض الشارع - إن
كان له عرض !!.

طُرد عز الدين نجيب العاشق العظيم للمسافر خانة دون سبب واضح إلا
الطرد الوقح منها ومن وكالة الغورى ملفقين له التهم السياسية سافرة التدبير
والتزوير . كأنه طرد ليتمكنوا من حرق المسافر خانة استعدادا لحرق وكالة
الغورى ودور السنارى والسكاكينى والبقية تأتى . إنهم يكرهون العشاق وكان
عز الدين نجيب عاشقا (حقيقيا) فى عالم مزيف وهذا سرأساته .

من سوف يقيم لها سراق الموتى ؟ من الذى سيتلقى التعازى ؟ . من الذى
سوف يضع يميناه فى أيدي القادمين لتقديم واجب الحزن ؟ أم سوف تدفن
المسافر خانة فى جبانة الغرباء فى مقبرة فقيرة مجهولة ليقام بدلا منها عمارة
انفتاحية فقيرة مليئة بالتليفزيونات وأطباق الدش المتراسة على سطحها لتُنسى
بعد زمن وجيز كما نسيت دار الأوبرا الخالدة - فى صدورنا على الأقل -؟

آدم حنين !!

فى بلادنا أنواع من الفنون قطعت الأزمنة والمفارقات التاريخية ما كان يصلنا بها فى الماضى من أواصر متينة ، وصلات عميقة !! .

فى بلادنا فنانون عظام يعرفهم العالم جيدا ويقدرهم حق قدرهم . يرفعون اسم مصر عاليا فى بلاد تحترم الفن وتعيه وتقدره يعيشون فى بلادهم غرباء ، حيث تحترم فنون الهلس ويصعد الأفاقون والمبتدلون . لولا قلة من الأصدقاء والمثقفين الجادين والمهتمين بالفنون الحقيقية لحملوا صُرَرهم على عصيهم ورحلوا للأبد ، فأكثر ما يقتل الفنان هو إحساسه بالغربة بين ذويهِ ، والتجاهل فى وطنه وبين أهله الذين يعشق !!

أكثر الفنانين إحساسا بالظلم فى بلادنا هم الرسامون والنحاتون والمثللون ، مع إنهم الأبناء الشرعيون لأجدادنا الفراعنة الذين علموا الكون كيف ينشق الحجر ليصعد منه الإنسان . كيف يُنطقون الشخوص قرنا بعد قرن من داخل خطوطها النحيلة فى أماكنها على نفس الجدران القديمة !!

أصبح شعبنا الأصيل - بحكم الظروف التاريخية - لا يعرف من الفنون سوى "القولية" منها . نسى تماما ما هيأت له الدنيا وما هيأناه للدنيا - عبر التشخيص - من نور وعلم ومعارف وحضارة وديانة منذ فجر التاريخ الذى أطلقناه من عقاله الأسود لينير طريق البشرية المقبل ، حتى سبقتنا البشرية فيما ابتدعناه وأتقناه ، بينما قيدتنا القيود ومنعتنا من مواصلة عطائنا الفريد !! .

حين نزلنا إلى هذه المدينة الكبيرة فى أوائل الستينيات ، نلتئمس أسباب المعرفة وأصول الثقافة عرفناه ضمن من عرفنا من خيرة كتاب وفنانى بلادنا . رجل ذكى حذر ، دمث الخلق ، مصرى حتى النخاع ، لا يلتفت إلى الصغائر . يتأمل الحياة بفرحة وعمق وجدية . فنان يهتز للمعنى واللمحة والصوت ويكتشف الجمال حتى فى النشاز . لكنه حين يبدع - وإبداع المثاليين شاق ومعذب - لا تملك أمام إنجازة إلا أن تقف صامتا خاشعا . تتأمل باستعراق شخوصه الحجرية . إذا أعطيتها نفسك خالصة مخصصة إستمعت إلى صوتها العميق وانتفضت أمامك عيونها تفك طلاس الملامح المعذبة الصامتة حاملة الحضارات وذرات التاريخ من سعادات واضطهادات لتمنحك زادا لاحتمال ورسوخا فى وجه الأيام وطاقات للصبر وقدرة على الاستمرار والعطاء والتمسك بالأمل فى أحلك اللحظات .

هذا هو الفنان العبقري الكبير فخر مصر : "آدم حنين" !!

كان يكفيه أن ينحت رأسا . رأسا فقط . لنتسمر أمامها سنين لا تبرح الذاكرة . فكانها تلخيص لكل الرؤوس المصرية الأصلية . لا يضيّعها منك ازدحام المعارف أو زحام الطرقات وصخب السنين وتعاقب الظروف . يمر الزمن ، وقد تنسى ملامح أمك أو شكل عمامة أبيك ، ولكن أبدا لن تنسى الغضب الصامت والقهر المعلن والحكمة التى قطرتها تجارب القرون ، والأسرار الروحية المخيفة لهذه الرأس "الأدمية" !!

كعواميد الملح ، مصلوبة بلا صلبان ، تقف تماثله قبطية الملامح ، قبطية الصبر والاحتمال ، قبطية السماحة . تخترق المهانة والنبيذ والمزاحمة . تضج بالمصرية . المصرية النقية الهاربة من عسف القوانين والسيوف . إذا ما

تأملتها بصفاء تستحقه ، قادتك إلى ملامح أجدادك الذين تعذبوا وعصفت بهم العواصف تحت نير الظلم التاريخي المتواصل يصلونك بما فقدته أو تكاد !!.

إن تماثيل آدم حنين المصرية التى تعرفها أوروبا جيدا ولا يعرف جمهورنا عنها شيئا ، هى الشهداء حين يقومون منتصبين ليدلوا بشهاداتهم فى وجه الكون والزمان . يشيرون إلى الاتصال والانفصال . يحملون إصرار مصر وديمومتها . يتحدثون النوازل والاستلاب ولئى أعناق التاريخ يثبتون أننا الأبناء البررة لأجدادنا الغابرين !!

فى زحام الأنظمة وتقلباتها وقيام القِيامات الدنيوية ، رحل "آدم حنين" إلى أوروبا . أصبح نجما وفنانا عالميا ، ولم يستطع ذلك أن يجبرنا على الاعتراف به ، فنحن لا نعترف سوى بفنانى المناصب ، أصبح نجما نتسقط أخباره فى بعض الصحف بين الحين والحين . ثم عاد إلى مصر !!

لم يحس برحيله أحد من شعبنا ، ولا أحسن بعودته أحد منا !!

أعاده لنا الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة ليقوم بدوره الرائد فى أهم أثر فرعونى فى مصر (أبو الهول) . لن أتحدث عما أنجز فى أسوان ولا عن علاقته بالنيل والحجر فى أسوان فلهذا قول آخر .

عشر سنوات قضاها (آدم حنين) مستغرقا مع زملائه فى ترميم هذا الأثر الخالد وإتمامه على خير وجه ، كما يحب له العالم ومصر وأبو الهول نفسه أن يكون . عمل لن ينساه التاريخ للوزير فاروق حسنى وآدم حنين وزاهى حواس واليونسكو وبقية الأخوة المختصين ، بل وللعمال الذين استردوا خبرتهم المصرية القديمة تحت إشراف هؤلاء العاشقين .

فى الاحتفالية الرائعة التى فشل التلفزيون فى إفسادها ، والتى واراها كأنها
لم تحدث - تجاهلاً أو غيرة أو عدم إدراك - . فى الاحتفالية الخلابة بإماطة
الغطاء عن رمز العظمة القديمة لمصر القديمة ، رأيت السيد رئيس الجمهورية
(محمد حسنى مبارك) يسلم فناننا العبقرى المجاهد (آدم حنين) وسام العلوم
والفنون من الطبقة الأولى . لم نر وجوه المكرمين . هكذا شاءت الكاميرات
التى لا تجيد سوى تصوير المطربات والراقصات . لكن بمجرد أن تقدم "آدم"
لتسلم الوسام ، اهتز القلب وغمرته فرحة راقية متحضرة تجاهلت الكاميرات
التى تجاهلته !!

هذه هى مصر تكرم رجالها الصبورين الدؤوبين المخلصين المتوارين عفة
وتواضعاً سامياً بعد عشرات السنين من العطاء النير والجهد النبيل .
أحسست أن الدنيا بخير ، وأن الله لا يضيع أجر الصابرين ، وأن مصر -
أحياناً - لا تأكل أبناءها !!.

القيثارة الفجرية...!!!

لم نعشق نحن شعراء الستينيات شاعرا ليس من بلادنا كما عشقنا شاعر إسبانيا الجميل "فبديريكو جارسيا لوركا". . عشقناه شاعرا وفنانا وإنسانا احتضن مبادئه ودافع من أجلها وقتل بها وهو في زهوة الشباب . كان شاعرا ومسرحيا ورساما أحب الرقص والغناء والحرية فعاش الحياة محتفيا بها وكأنه تنبه منذ وقت مبكر إلى أن أيامه على الأرض قليلة فقرر أن يمتصها إلى آخر رشفة قبل أن تفرغ الكأس...!!

عاش لوركا في الفترة ما بين ١٨٩٨ - ١٩٣٦ ، أى أنه قتل قبل ميلادى بعامين ، وإن كنت لم أعلم بموته إلا بعد ذلك بسنوات طويلة حين قرأت عن الحرب الأهلية الإسبانية التى كان لوركا من أوائل ضحاياها !..

ثمانية وثلاثون عاما فقط هى عمر هذا الشاعر الذى ما زال فنه يشع الضوء فى أرجاء الدنيا والذى تحتفل جميع الأوساط الأدبية فى العالم هذه الأيام بمرور مائة عام على ميلاده .

دار لوركا - مثلى - فى أوساط الغجر وعائش عوالمهم وأغرم بالفلامينكو الذى تعكس ألحانه الروح الأندلسية التى تجلت فى أشعاره ومدوراته الغنائية . بل وفى وحشية مسرحه وغرابته الملطخة برسوم الدم وبقع الحزن الخالدة وشجار الألوان فى التداخلات والتشابكات والانفصال . ففى رسومه هدا

الشعر ، وفى أشعاره جنت الألوان والصور وامتزج الغجر بالبحر والزهور
بالرفص والدماء .

ولد لوركا لعائلة ثرية فى ريف إسبانيا المحيط بغرناطة .. كان مغرماً
بالاختلاط بالمزارعين وجماعات الغجر الذين يقطنون هوامش القرى ، وشكّنت
هذه التجربة بواكير وعيه الفنى والأدبى حيث صدر له أول ديوان شعرى فى
عام ١٩٢٨ باسم (أغاني الغجر) .

تبدت قدرات لوركا الفذة فى اتجاهات متفرقة الضوء . متوحدة المنبع ، فقد
استطاع - إلى جانب الشعر - أن يتحقق كموسيقي موهوب بارع ، ورسام
مدهش ، وكان الرسام السريالى "سلفادور دالي" واحداً من أصدقائه المقربين ،
كذلك المخرج السينمائى "لوى بونويل" . كان يجمع بينهم رفضهم للحياة
الحديثة التى تقتل فطرة الإنسان وتستبيح بكاره مشاعره . ربما كان ذلك من
أثر الفترة البائسة التى قضاها لوركا ضائعاً فى مدينة نيويورك حيث عانى
غربة أثرت فى مساره الإنسانى والفنى لأبعد الحدود ، والتى وصف الحياة
فيها بأنها "حياة ميكانيكية" وانتقدها بحدة فى قصيدته "نيويورك" .

ولقد أبدى لوركا اهتماماً شديداً بفن المسرح وكتب مسرحياته الثلاث
الشهيرة "يرما" ، "بيت برنارد ألبا" ، "عرس الدم" التى أصبحت من كلاسيكيات
المسرح الأوروبى وتدور حول الثأر وحزام الأقدار السوداء الذى يحيط ببشر
البشر ، ولا شك أنها كانت من تأثيرات الفترة العجورية التى استحوذت على
جانب كبير من حياته ، حيث تتناول مسرحية "عرس الدم" على سبيل المثال
قصة العروس التى تهرب فى ليلة زفافها من عريسها لتتزوج من الرجل الذى
كانت تحبه سرا .

يبدو أن إبداعات لوركا كانت تعكس بصور مختلفة إحساسه الداخلى وتوقعه الغامض للخاتمة الفاجعة التى كانت تنتظره . فما إن بدأت الحرب الأهلية الإسبانية - ١٩٣٦ - حيث تصدت قوات الجنرال "فرانكو" للحكومة الإسبانية المنتخبة وكان لوركا من المناهضين للديكتاتورية ، حتى اعتقلت إحدى الجماعات اليمينية شاعر إسبانيا وشاعر الإنسانية الجميل ، وقادته إلى مزرعة للزيتون قرب غرناطة فى الريف الذى أحبه وتغنى به طويلا ، حيث أطلق عليه "الحرس الأسود" رصاصاته السوداء !!!..

على الرغم من الغموض الذى أحيط بقتله لسنوات طوال إلا أن مقتله كان تجسيدا لمأساة المجتمع الإنسانى بأكمله ورمزا لمصائر شرفاء الكلمة الصادقة والموقف النبيل فى مواجهة الحكومات التى تتحاور بالرصاص والقتل والإبادة ، والتى تخشى الكتاب الأتقياء والفنانين الذين يحتضنون قضايا شعوبهم أكثر مما تخشى القنابل الفتاكة والقذائف المبيدة !!!..

لكن لوركا ظل وسيظل ذلك النبع العذب الذى يرتوى منه كل أحباب الحرية وعشاق الإنسانية فى الدنيا وأنموذجا للسائرين على دروب الكلمة الشريفة . الذين يحتضنون الأوطان بينما تتبثق دماؤهم لتتبت الزهور احتفاء بالموت الذى يصنع الحياة كما يحبها أهل الحلم ضد هؤلاء الواقعيين المعادين للحب والخير والسلام .

هكذا انتصب جثمان لوركا حيا فى مسارح العالم وفى قلوب محبى الشعر النبيل بالذات بعد عودة النظام الديمقراطى لإسبانيا وبعد انتهاء عقود من القمع السياسى والثقافى . كأنه ولد اليوم بطلا على المستوى الإنسانى والأدبى ، وعادت تصدح من جديد فى أجواء الدنيا تلك "القيثارة الغجرية" !!

مؤتمر (أمل دنقل) الأدبي الأول

لم نكن يومها نريد التوقف بشعر الفصحى عند أعتاب أبواب أمل دنقل .
لكننا كنا نحتفل برشاقة الاتساق صدقا ولغة وتعبيرا . كان الرجل يرى طريقه
ويدرك قيمة ما يخبئه فى جيب جلبابه ويعى مسئولية إيصال الأمانة عبر شقاء
الحياة وسنوات المرض ومصاحبة الموت !!

كانت قصيدته لفاقة الوليد وثوب الطهور والكفن . أقمشة غيرت وظائفها
ولم تغير لونها رغم تراب العواصف ومنزقات الطين فى المطر . لم يلامس
النار بل ولجها وأمسكت بأكامه وذيل جلبابه . لم يفزع ولم تسمع له صرخة
أو أنة واحدة!!

ارتقى الدرج سلمة سلمة ونضح فجأة . أنضجته فوضى الحياة من حوليه
والتزاحم على ارتكاب الخطأ / الخطيئة فى حق الوطن والأجيال المقبلة فخرج
الصوت يسبح بين الحقيقة والحلم ، يتسلل فى غير خفاء بين الظل والنور .
الكلمة واضحة كأنها انفلتت من أغلال النثر إلى تهويم الشعر ورحابته وسلاسة
أمواجه المتتابة .

كل من شربوا

هربوا دون أن يدفعوا ثمنا للعزاء

رحلوا .. بعد أن قلبوا فى التراب الإثاء .

ووفدتُ على الحان ، لم أر غير الحطام

وذبال المصاييح .. والقط .. يعبث

بالفضلات الأخيرة !!

..

من يقتل أطفالى المساكين

لكيلا يصبحوا فى الغد شحاذين

يستجدون أصحاب الدكاكين ..

وأبواب المرابين

يبيعون لسيارات أصحاب الملايين الرياحين

وفى المترو

يبيعون الدبابيس و(يس ..) ؟

..

أن تتحول المشاهد والملاحظات اليومية إلى لغة تصدر عن العين كأنك تقرأ
الشارع والمستقبل معا . أن تطيع الفصحى النظر فكأنه يرى بعيون اللغة وطنه
وأهله وأسرار قلبه الدفينة . مشق براق لا يبذل الجهد فى القول بل يسقط
الشعر فى "حجره" الرحب لينفضه فى وجوهنا ليرحل وتعلق الأقوال .

كنا نحتفل بالمواطن العربى الذى قنن الفوضى ليضعها فى أنساق هى من
خصوصيات وعيه ودربة أصابعه وتحمل صورة خائمه لا تقلد أحداً وغير
قابلة لأن تقلد .

هذه البساطة التى زحفت جماهير الريف والمدن - هناك - ساعية إلى
صاحبها الذى تجنبها وتجنبته وعشقت أشعاره واحتضنته كميراث الأجداد
والآباء غال لا يمكن التفريط فيه . كان مؤتمر أمل دنقل دفاعا شعبيا ورسميا
عن هذا الإرث المفهوم ذى القيمة العبقريّة الغالية . دفاعا عن قيمة الحياة

القصيرة التي اعتصرتها عبثة الحياة وهموم الأمة وانثى دنتها قدم الحكاء
وما زالت :

هل يرث الأرض إلا بنوها ؟

وهل تتناسى البساتين من سكنوها ؟

وهل تتكرر أغصانها للجنود

لأن الجنود ..

تهاجر في الاتجاه المعاكس ؟

.. .. .

من لم يكن معنا . من لم يشاركنا . فائته متعة لا يزحمنا أريج مرورها
مرتتين . أجمل الفصول غير المقصودة التي تعبق من فصول أخرى .
احتفلت قنا بشاعرها . شاعر الأمة العربية الكبير : "أمل دنقل" . تحية لكل
من وضع وردة على أشعاره . وأضاء شمعة في ليلته ، وأعاد الحياة إلى
كلماته :

لا تصالح على الدم .. حتى بدم

لا تصالح .. ولو قيل رأس برأس

أكل الرعوس سواء ؟

أقلب الغريب كقلب أخيك ؟

أعيناه عينا أخيك

وهل تتساوى يد سيفها كان لك

بيد .. سيفها أتكلك ؟

غالب هلسا !!

فجأة باغتتني صورته .. ما إن فتحت "كتاب في جريدة" هذا الشهر ، حتى ففز ليستقر أمامي تاركا الكتاب والجريدة معا جالسا على نفس الكرسي الذى كان يفضلهُ سمين الوجه كالعادة - من نهم كان يعرف حقيقة ضرره ، وكان يغالبه كثيرا ولا يغلبه . يدعى الطيبة والسذاجة بل والبلاهة أحيانا ليخدعك من أجل شيء فيه نفعك . إنه صديقنا العظيم وأديبنا النبيل وأخونا الأكبر دائما : الروائى والقصاص والمثقف النظيف "غالب هلسا" !!

اكتفيت به عن كل الأردنيين . بل لقد أفسد علاقتى بهم إذ لم أجد فى الأردن على مدى السنوات الطوال والزيارات العديدة "غالبا" آخر !!

لم يكن "غالب هلسا" أردنيا كما يقول الكتاب الذى فى الجريدة . بل كان منا . كان مصريا أكثر من مصريين نشهد لهم بالوطنية وصدق النضال . هؤلاء الذين دفعوا ثمن حبهم لهذا الوطن سجنا واعتقالا وقطع عيش !!.

لبنان ، مصر ، العراق ، جنوب اليمن ، سورية ، لكنه عاش فى مصر ثلاثة وعشرين عاما متصلة - كما يقول الكتاب الذى فى الجريدة - كيف لم نحس لحظة أنه قادم من وطن آخر؟ كيف تسرب إلى حياتنا بهذه البساطة؟ كان كل ما يهمه فى بيوتنا شيان : الثلاجة والأجزخانة . كان قد أخذ "كورسا" فى الطب بالجامعة الأمريكية فى مصر جعله يفهم جيدا فى الأكل الصحى والأدوية . يتجه دون استئذان إلى الثلاجة ليخرج الطماطم والجرجير والخس وما شابه ليلتهمها مهما كانت الكمية . بعدها يتجه إلى الأجزخانة المنزلية المزدحمة بأدوية لا نعرف شيئا عنها بعد انتهاء مهمتها فيفرز الأدوية الهاضمة

فى جهة والفيتامينات فى جهة ويضع هذا فى الجيب الشمال وذلك فى الجيب اليمين .. إلخ .

ولتبرير نهمه وحبه للصحة والحياة كان يشيع فى كل مقاهى المدينة قصصا عن شرهنا وحبنا المرضى للطعام ، ويدعى أن هذه الشراهة ستقتلنا يوما !!

كان أكثرنا إماما بالفلسفة والأدب والاقتصاد . كان يعمل مترجما فى وكالة أنباء الصين ، وكان يعانى ، وكانت شقته فى ميدان الدقى مزارنا جميعا . كان طفلا وأبا كما كان مصريا وعربيا لا تستطيع أن تميز فيه وجهها من وجهه . كان يخوض معاركه السياسية والأدبية كأنه فى بلده ، بل فى داره . لم يتزوج ولم ينجب . لذلك لم يكن غريبا عليه أن يسجن معنا حين اعتقلنا فى أواخر عام ١٩٦٦ .

حين زج بى المخبر فى الزنزانة المظلمة الضيقة وأغلق الباب بقسوة وبفرقة إعلانية . طفقت أبحث عن شق بين ألواح الخشب يصل عيني بالخارج - أى خارج - خرج المخبر بغالب هلسا من الزنزانة المقابلة . بعثت رأسه الحليفة وبدانته المفاجئة الضحك الذى لم أستطع كبحه رغم الظروف المريزة التى كانت تحيط بى . حين ارتفع الضحك صاح "عم سيد المخبر" من خارج الزنزانة "أخرس يا واحد وعشرين" كنا أرقاما وأظن أن رقم غالب كلن ١٦ ، وحين عاد "الخواجة" - كما كنا نطلق عليه - من دورة المياه كان على أن أبلغه بقدومى - وقدمنا - فصعدت إلى شباك الزنزانة وانطلق صوتى :

"عم بتضوى الشمس

ع الأرض المزروعة

عم بتضوى الشمس

والدنيى .. عم توعى"

وانطلق صوت غالب هلسا يكمل الأغنية فى نرق من عاد له صباح !!.

كان هذا فى "سجن القلعة" التاريخى ، وحين انتقلنا إلى "سجن مزرعة طره" تشاجرنا على قرن رغيـف خبز فكسر غالب هلسا رجلى فتورمت وحملت إلى المستشفى .

فى السجن لم يكن يحلم بتحرير الوطن أو بعث روح الأمة ، وإنما انحصرت أحلامه فى كيلو كباب وسيجارة طولها نصف متر . لم يكن تمثالا من حديد زهر قابلا للكسر ، بل كان إنسانا من لحم ودم ونزوات ورغبات وشهوات !!

لم يكن سجننا المصرى الوحيد الذى أطبق على بدن وأنفاس صديقنا الحبيب غالب هلسا ، كان فقط أحد السجون العربية التى استضافته لا أكثر .

فى عام ستة وسبعين اختطف غالب من أمام شيراتون القاهرة ، وفى المطار عرف أنهم سيـشحنونه إلى عمان فرجاهم أن يشحنوه إلى بغداد . من هناك أرسل لى رسالة حزينة كأنها تننبأ بكل ما جرى على أرض العراق بعد ذلك . تنقل فى بلدان عربية وأفريقية عديدة قبل أن يستقر فى دمشق . أول من نشر ديوانى "الموت على الأسفلت" هناك بمقدمة له . ثم فجأة جاعنى الخبر المشئوم .

حين انتقل الجسد من دمشق إلى الحدود الأردنية ليـدفن فى قريته ، قيل - والعهدـة على الراوى - أن ثلاثة أيام لم تكن كافية للتصريح للجسد المتعب بالدفن . ظل الصندوق الخشبى ملقى إلى جوار أسلاك حدود بلده القديم : الأردن !! .

إنهم يسرقون التراب !!

فى طريقنا من بيروت إلى الجنوب اللبناى - الحى فى زمن الموت العربى - راحت عيوننا تتسلق الأعمدة لقراءة اللافتات وصور الشهداء عل الذاكرة تحتفظ بها عندما نعود إلى مدن اللهو والغياب .

هذا الشهيد شيعى تضاعف لحيته سنه ، وهذا شهيد آخر عصرى الملابس وتصفيف الشعر . أما اللافتات فقد أخلتلى . كأنها قادمة من أزمنة أخرى وصادرة عن بشر لم يعد لهم وجود على أرض بلادنا اللاهية !!

قال "على" السائق المثقف الوطنى المهذب ابن بلدة "جزين" المناضلة التى استردها أبناؤها من برائن الصهاينة فى بادرة عجيبة هى الأولى من نوعها على طول تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى - إلى جانب حرب أكتوبر طبعاً - ثم عادت إسرائيل لاحتلالها ولكن المقاومة الصادقة لرجال المقاومة أجبرتها على الرحيل !!

تخيل أن تكون ابن بلدة كهذه !!! هكذا كان "على" ابن قرية "جزين" حاداً كالسيف أنوفا عازفاً عن الصغائر تخجل أن تفكر فى مد يدك إلى جيبك . أنموذج اختفى فى الحياة المصرية العصرية ، لم يعد منه أحد ، وقد كانت مصر تعج بأمثاله قبل أن يجتاحنا الخلق الانفتاحى لننتفح .

قال "على" ونحن نستعرض الشواطئ ، وتقدم لنا الأماكن واللافتات نفسها على طول الطريق من بيروت مروراً بصيدا إلى صور : هذا هو مخيم (عين

لخوة) الفلسطينيين الذي اجتاحه الإسرائيليون بالدبابات والمدافع ليحصدوا الرجال والنساء والأطفال وليتركوا الجثث فوق بعضها في شوارع تنفخ وتتورم ..

بصد الذهاب إليها . قالت لها آية : "ربما نموت يا نور" . سألتني نور : "هل ستموت؟" قلت : "لا" وهى تثق فيما أقول .

اشرأبت تنتظر إلى آثار القنابل والدمار ، لتطابق بين الحقيقة وما رأت فى التلفزيون وتأكدت أنها نفس الصورة لنفس الجسر والسيارات المحترقة .

قالت زوجتى مشيرة إلى البحر : "يبدو أن هذا الشاطئ جيد" - كانت تقصد أنه مختلف عن البلاجات الأخرى - قال "على" - والسيارة منطلقة على الشارع الذى يطل على البحر دائما - : "لم تبق لنا الحرب الأهلية ولا الاعتداءات الإسرائيلية على شاطئ جيد . كان هذا الشاطئ رائعا فعلا بل ومن أجمل شواطئ لبنان ، لكن الإسرائيليين سرقوه " .

اعتبرته تعبيراً شعرياً رمزياً . أو أنه يعنى أنهم فى الاجتياح سرقوا أعمدة الرخام وخشب المنشآت كما يفعلون دائما . سألته : "كيف سرقوه؟" قال بغضب هادئ : "سرقوه . سرقوا رماله . استطاعوا شطف رمال الشاطئ ونقلها فى السفن إلى إسرائيل" . قلت متعجبا فعلا : "فى السفن؟" قال : "فى السفن والوارى وبكل الطرق . كان رمل هذا الشاطئ نادرا . ولأنهم يهود يفهمون حتى فى نوعية الرمال وقيمة التراب . سرقوا أجمل رمال لأجمل شاطئ بلبنان" . حين رآنى أتململ قال : "ألم توسعوا قناة السويس أكثر من مرة؟ ألقيت بالرمال التى شطفها الشفطات على شاطئ سيناء . قد لا يصدق أحد أن بلدا يهجم على بلد ليسرق رماله ويهرب بها ولكن هذا ما حدث من إسرائيل مع لبنان !!"

حين وجدنى صامتا متحيرا نظر نحوى ربما للمرة الأولى منذ تحركت بنا السيارة من أمام باب الفندق ببירות ثم قال وقد علت نبراته : "أنت رجل شاعر تكتب عن الوطن وعن إسرائيل وتعلم أنها تسلبنا كل شىء من الرمل

بنى الرجولة، ليست بالمرة الأولى التى تسرق فيها التراب . ماذا عن سرقة التربة الزراعية من أرض الجنوب؟ ألم تسمع عن ذلك؟ ألم تعرف أن وزارة الخارجية قد طلبت من بعثة لبنان الدائمة لدى الأمم المتحدة التحقيق والتدقيق فى صحة سرقة التربة اللبنانية الصالحة للزراعة من "سهل الدردارة" و"مرج الخيام" فى "مرجعيون" ونقلها إلى المنطقة الزراعية التى استحدثتها إسرائيل خلف الحدود الدولية قبالة "كفر كلا" و"مستعمرة المطلة"!!؟

الشاب الودييع الخجول فى طلفات متتالية . تخرج من فمه البلاد شبرا شبرا وإسما إسما . سوف ندخل هذا اللون الجديد من السرقة إلى (موسوعة جينز) وننسب شرفه إلى إسرائيل وسوف نقدم المعلومة هدية إلى الأمين العام للأمم المتحدة . نعم يا أستاذ ، إنهم يسرقون التراب . فهل تظن أن من يسرق التراب يمكن أن يعيد لنا الأرض؟؟ لا .. لابد من استردادها باليد والسلاح والدم والشهيد..".

تطلب جميع أعمال الشاعر

(المقروءة والمسموعة)

من

أجلِس للنشر والإنتاج الإخلاقي



٢٥ شارع وادي النيل، المهندسين

صدر للشاعر :

- ١ — الأرض والعيال ديوان شعر ١٩٦٤/١٩٧٥/١٩٨٥/٢٠٠٠
- ٢ — الزحمة ديوان شعر ١٩٦٧/١٩٧٦/١٩٨٥
- ٣ — عماليات ديوان شعر ١٩٦٨
- ٤ — جوابات حراجي القط ديوان شعر ١٩٦٩/١٩٧٧/١٩٨٥/١٩٩٦/٢٠٠١/٢٠٠٠
- ٥ — الفصول ديوان شعر ١٩٧٠ / ١٩٨٥
- ٦ — أحمد سماعين سيرة إنسان ١٩٧٢/١٩٨٥/١٩٩٨/٢٠٠٠
٢٠٠١
- ٧ — أنا والناس ديوان شعر ١٩٧٣
- ٨ — بعد التحية والسلام ديوان شعر ١٩٧٥/١٩٩٨/٢٠٠٠/٢٠٠١
- ٩ — وجوه على الشَّط قصيدة طويلة ١٩٧٥/١٩٧٨/٢٠٠١
- ١٠ — صمت الجرس ديوان شعر ١٩٧٥ / ١٩٨٥
- ١١ — المشروع والمنوع ديوان شعر ١٩٧٩ / ١٩٨٥
- ١٢ — المد والجزر قصيدة طويلة ١٩٨١
- ١٣ — السيرة الهلالية دراسة مترجمة ١٩٧٨
للفرنسية
- ١٤ — الموت على الأسفلت قصيدة طويلة ١٩٨٨/١٩٩٥/١٩٩٨/٢٠٠١

١٥-١٦-١٧ سيرة بنى هلال	الأجزاء الثلاثة	١٩٨٨ طبعات متوالية
١٨-١٩- سيرة بنى هلال	الجزءان الرابع والخامس	١٩٩١ طبعات متوالية
٢٠ — الاستعمار العربى	قصيدة طويلة	١٩٩١ / ١٩٩٢
٢١ — المختارات	الجزء الأول	١٩٩٤ / ١٩٩٥
٢٢ — آخر الليل	مقالات	١٩٩٨ / ٢٠٠١
٢٣ — الأحزان العادية	ديوان شعر	١٩٩٨
٢٤ — الأخطاء المقصودة	مقالات	٢٠٠٠ / ٢٠٠١ / ٢٠٠٢
٢٥ — الدواوين المسموعة	٢٠٠١ طبعات متوالية	
٢٦ — أيامى الحلوة	مقالات	٢٠٠٢
٢٧ — سيرة بنى هلال	(طبعة أطلس)	٢٠٠٢ خمسة كتب فى كتاب

الفهرس

٥	إهداء
٧	عفريت القيلولة
٩	القصيددة والقصد
١٤	تغيرر النشاط
١٧	أمة بلا دولة
٢١	قطار النسيان
٢٥	الحزام التاريخى
٢٨	الجبر والاختيار
٣١	القرن الجديد
٣٤	أصحاب القرنين
٣٧	القرد والمراد
٤١	الأسد واللبؤة
٤٤	دائرة الشنوذ
٤٨	ربط السراويل
٥١	العبرة بالخواتيم
٥٥	الآخر
٥٨	الأخطاء المقصودة
٦١	كلنا فى الهم
٦٤	القفا العريض

٦٧	أحباء العدو
٧٠	كذا وكذا
٧٣	النسخة المعدلة
٧٧	الحبس الانفرادى (١)
٨١	الحبس الانفرادى (٢)
٨٤	تغيير العالم
٨٧	أطفال كوسوفا
٩٠	البلياتشو
٩٣	ابن السوق
٩٦	الدماء القديمة
٩٩	الرسالة
١٠٢	أنشيد البلطجة
١٠٥	الأسف
١٠٨	دولاب الدولة
١١١	درس فى الواقعية
١١٤	العائلات
١١٧	اللعبة العصرية
١٢٠	الخط الأحمر
١٢٣	ممنوع العقاب
١٢٦	وطن بالإيجار
١٣٢	إنها مصر

١٢٠	الكلاب القديمة
١٤٠	مائدة السفير
١٤٣	ثقافة القذارة
١٤٧	بوابة الرحيل
١٤٩	النشاز الجميل
١٥٢	الماكوك
١٥٥	العدالة
١٥٨	جاهين ٥٦
١٦٢	حسن حاكم
١٦٥	رحيل المسافرين .. خانة
١٦٨	آدم حنين
١٧٢	القيثارة العجرية
١٧٥	مؤتمر (أمل دنقل) الأدبي الأول
١٧٨	غالب هلسا
١٨١	إنهم يسرقون التراب !!
١٨٧	صدر للشاعر



(الخطأ والصورة)

هكذا وجدني الخفت مولى فاضني
 إلى أبواب البشر البقية لم أكن
 أصلاً وكنت أجاهل فيطربني فل
 مئة لثني لم أعلمه ظالمين للشعر
 لكنه لم يعد ويرد لي الربط - لماتي
 له التوجع عن نسيانه والانسحاق مع
 النثر إلى تقباية الزانية
 لم أخبره بشعر فلماذا أحمل منه
 هذا الخطأ كراي وهو يعلم - جيل - اني
 من أكبر خرافة...

ليلان أبو نورا